

النوازل اللسانية

والسيمائي والتربوي



الدكتور جميل حمداوي

الألوكة
www.alukah.net

الإهداء

إلى أمي وأبي

إلى أهلي وعشيرتي

إلى أساتذتي

إلى زملائي وزميلاتي

إلى الشموع التي تحترق لتضيء للآخرين

إلى كل من علمني حرفاً

أهدي هذا البحث الأكاديمي راجياً من المولى

عز وجل أن يجد القبول والنجاح

المقدمة

يذهب كثير من الدارسين إلى أن الدوال تدل، وتتواصل بطريقة مباشرة وغير مباشرة، ومنها: اللغة، والعلامات، والخطابات، والأنساق، والإنسان، وسائر الكائنات الموجودة في الطبيعة. ويعني هذا أن كل شيء في عالمنا يحمل دلالة ووظيفة. وهذه الوظيفة قد تكون ذات مقصدية أو بدون مقصدية، ذات ميزة فردية أو جماعية، طبيعتها مادية أو معنوية. كما أن هذه الدوال التواصلية قد تكون لفظية أو غير لفظية، تعبر عن وعي أو عن غير وعي. واليوم، أصبح التواصل عبارة عن تقنية إجرائية وأساسية في فهم التفاعلات البشرية، وتفسير النصوص والخبرات الإعلامية، والتحكم في كل طرائق الإرسال والتبادل.

وتعد اللغة من أهم آليات التواصل، ومن أهم تقنيات التبليغ ونقل الخبرات والمعارف والتعلم من الأنا إلى الغير، أو من المرسل إلى المخاطب. وهذه اللغة على مستوى التخاطب والتواصل والتمظهر ذات مستويين سلوكيين: لفظي وغير لفظي.

إذا، ما مفهوم التواصل؟ وما أنواعه؟ وما نماذجه؟ وما شروطه؟ وما المقصود من التواصل اللفظي وغير اللفظي؟ وما أهم الآليات الإجرائية التي يستند إليها التواصل اللفظي وغير اللفظي في المجال التربوي؟ وما جهود رومان جاكسون في مجال لسانيات التواصل؟ وكيف يمكن دراسة الأدب في المنظور التواصلية؟

هذا ماسوف نرصده في كتابنا هذا الذي عنوانه بـ(التواصل اللساني والسيمائي والتربوي)، على أساس أن التواصل فعل تبادلي مهم في حياتنا الإنسانية، وقد يتخذ عدة أشكال وألوان ومظاهر. ومن أهمها: التواصل اللساني، والتواصل السيميائي، والتواصل الأدبي، والتواصل التربوي، بالإضافة إلى التواصل اللفظي والتواصل البصري.

ونرجو من الله عز وجل أن يوفقنا في هذا الكتاب المتواضع، ويسدد خطانا، ويرشدنا إلى ما فيه صالحنا، ونستغفره عن أخطائنا وزلاتنا. كما نستسمح القراء الأفاضل عما في هذا الكتاب من نقص وتقصير ونسيان، فالكمال والتمام من صفات سبحانه وتعالى جل شأنه وعلا، وماتوفيقي إلا بالله.

الفصل الأول:

مفهوم التواصل، وأنواعه، ونماذجه

المبحث الأول: مفهوم التواصل لغة واصطلاحاً

لا يمكن فهم التواصل وإدراك آلياته ومجالاته ومفاهيمه إلا بتعريفه لغة واصطلاحاً على النحو التالي:

المطلب الأول: التواصل لغة

يرى ابن منظور، في كتابه (لسان العرب)، أن الاتصال من فعل وصل وصلا ووصولاً واتصالاً: " وصل: وصلت الشيء وصلا وصلة، والوصل ضد المهجران. ابن سيده: الوصل خلاف الفصل. وصل الشيء بالشيء يصله وصلا وصلة وصلة؛ الأخيرة عن ابن جني، قال: لا أدري أمطر هو أم غير مطرد؟ قال: وأظنه مطرداً، كأنهم يجعلون الضمة مشعرة بأن المحذوف إنما هي الفاء التي هي الواو، وقال أبو علي الضمة في الصلة ضمة الواو المحذوفة من الوصلة، والحذف والنقل في الضمة شاذ كشذوذ حذف الواو في يجد، ووصله كلاهما: لأمه. وفي التنزيل العزيز: ولقد وصلنا لهم القول، أي وصلنا ذكر الأنبياء وأقاصيص من مضى بعضها ببعض، لعلمهم يعتبرون. واتصل الشيء بالشيء: لم ينقطع؛ وقوله أنشد ابن جني:

قام بها ينشد كل منشد وایتصلت بمثل ضوء الفرقد

إنما أراد اتصلت، فأبدل من التاء الأولى ياء كراهة للتشديد؛ وقوله أنشد ابن الأعرابي:

سحيراً وأعناق المطي كأنها مدافع ثغبان أضر بها الوصل

معناه: أضر بها فقدان الوصل، وذلك أن ينقطع الثغب فلا يجري ولا يتصل، والثغب: مسيل دقيق، شبه الإبل في مدها أعناقها إذا جهدها السير بالثغب الذي يخده السيل في الوادي. ووصل الشيء إلى الشيء وصولاً وتوصل إليه: انتهى إليه وبلغه؛ قال أبو ذؤيب:

توصل بالركبان حيناً وتؤلف الـ جوار ويغشيها الأمان ربابها

ووصله إليه وأوصله: أتحاه إليه وأبلغه إياه. وفي حديث النعمان بن مقرن: أنه لما حمل على العدو ما وصلنا كتفيه حتى ضرب في القوم أي لم نتصل به ولم نقرب منه حتى حمل عليهم من السرعة. وفي الحديث: رأيت سببا واصلا من السماء إلى الأرض أي موصولا، فاعل بمعنى مفعول كماء دافق؛ قال ابن الأثير: كذا شرح، قال: ولو جعل على بابه لم يبعد. وفي حديث علي -عليه السلام-: صلوا السيوف بالخطى والرماح بالنبل؛ قال ابن الأثير: أي إذا قصرت السيوف عن الضربة فتقدموا تلحقوا وإذا لم تلحقهم الرماح فارمهم بالنبل؛ قال: ومن أحسن وأبلغ ما قيل في هذا المعنى قول زهير:

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طعنوا ضاربهم فإذا ما ضاربوا اعتنقا

وفي الحديث: كان اسم نبهه -عليه السلام- المتصلة، سميت بها تفاؤلا بوصولها إلى العدو. والمتصلة لغة قريش فإنها لا تدغم هذه الواو وأشباهاها في التاء. فيقول موصل وموتفق وموتعد ونحو ذلك. وغيرهم يدغم فيقول متصل ومتفق ومتعد. وأوصله غيره ووصل: بمعنى اتصل أي دعا دعوى الجاهلية، وهو أن يقول: يال فلان! وفي التنزيل العزيز: إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق؛ أي يتصلون؛ المعنى اقتلوهم ولا تتخذوا منهم أولياء، إلا من اتصل بقوم بينكم وبينهم ميثاق واعتزوا إليهم. واتصل الرجل: انتسب، وهو من ذلك؛ قال الأعشى:

إذا اتصلت قالت لبكر بن وائل وبكر سبتها والأنوف رواغم

أي إذا انتسبت. وقال ابن الأعرابي في قوله: إلا الذين يصلون إلى قوم؛ أي ينتسبون.^١

يتبين لنا، من هذه المادة اللغوية، أن التواصل من الفعل المثلث المعتل (وصل)، ويدل على الوصل والاقتران والاقتراب والانتساب والاجتماع والتضام والوصول والبلوغ والانتهاء. ويعد الفراق والانقطاع والابتعاد والبين والمهجران من أضداد التواصل.

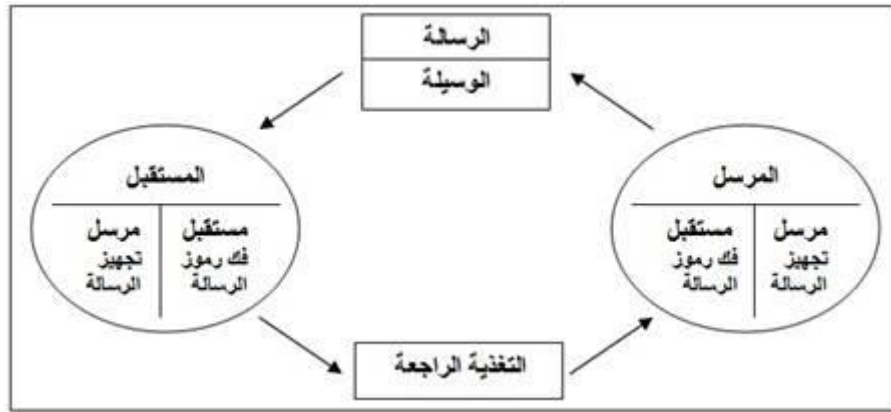
وعلى العموم، يفيد التواصل، في اللغة العربية، الاقتران، والاتصال، والصلة، والترابط، والالتزام، والجمع، والإبلاغ، والانتهاء، والإعلام.

^١ ابن منظور: لسان العرب، الجزء الخامس عشر، حرف الوار، مادة وصل، دار صادر، بيروت، لبنان، طبعة ٢٠٠٣ م.

أما كلمة (**Communication**)، في اللغة الأجنبية، فتعني إقامة علاقة، وتراسل، وترباط، وإرسال، وتبادل، وإخبار، وإعلام. أي: هناك تشابه في الدلالة والمعنى بين مفهوم التواصل العربي والتواصل الغربي.

المطلب الثاني: التواصل اصطلاحا

يدل التواصل، في الاصطلاح، على عملية نقل الأفكار والتجارب، وتبادل المعارف والمشاعر بين الذات والأفراد والجماعات. وقد يكون هذا التواصل ذاتيا شخصيا أو تواصلًا غيريا. وقد ينبني على الموافقة أو على المعارضة والاختلاف. ويفترض التواصل أيضا - باعتباره نقلا وإعلاما - مرسلا، ورسالة، ومتقبلا، وشفرة، يتفق على تسنيها وتشفيرها كل من المتكلم والمستقبل (المستمع)، وسياقا مرجعيا، ومقصدية الرسالة.



ويعرف شارل كولي (Charles Cooley) التواصل قائلا: "التواصل هو الميكانيزم الذي بواسطته توجد العلاقات الإنسانية وتتطور. إنه يتضمن كل رموز الذهن، مع وسائل تبليغها عبر المجال، وتعزيزها في الزمان. ويتضمن أيضا تعابير الوجه وهيئات الجسم والحركات ونبرة الصوت والكلمات والكتابات والمطبوعات والقطارات والتلغراف والتلفون، وكل ما يشمله آخر ما تم في الاكتشافات في المكان والزمان"² وهكذا، يتبين لنا، عبر هذا التعريف، أن التواصل هو جوهر العلاقات الإنسانية، ومحقق تطورها. لذا، فالتواصل له وظيفتان من خلال هذا التعريف:

² - Charles Cooley: (social organisation), cité in: J. Lohisse : **la communication anonyme**. ED. Universitaire 1969, p : 42.

① وظيفة معرفية: تتمثل في نقل الرموز الذهنية، وتبليغها في الزمان والمكان، بوسائل لغوية وغير لغوية؛

② وظيفة تأثيرية وجدانية: تقوم على تمكين العلاقات الإنسانية، وتفعيلها على مستوى اللفظي وغير اللفظي.

وهناك من يعرف التواصل بأنه " العملية التي بها يتفاعل المراسلون والمستقبلون للرسائل في سياقات اجتماعية معينة"^٣.

ومن المعلوم أن للتواصل ثلاث وظائف بارزة يمكن إجمالها في:

① التبادل: Echange

② التبليغ: Transfert

③ التأثير: Impact

ويعرف التواصل أيضا بأنه " تبادل المعلومات والرسائل اللغوية وغير اللغوية، سواء أكان هذا التبادل قصديا أم غير قصدي، بين الأفراد والجماعات"^٤. ومن ثم، لا يقتصر التواصل على ماهو ذهني ومعرفي فحسب، بل يتعداه إلى ماهو وجداني، وماهو حسي حركي وآلي. أي: ليس التواصل " مجرد تبليغ المعلومات بطريقة خطية أحادية الاتجاه، ولكنه تبادل للأفكار والأحاسيس والرسائل التي قد تفهم، وقد لا تفهم بالطريقة نفسها من طرف كل الأفراد المتواجدين في وضعية تواصلية"^٥.

ومن هنا، فالتواصل هو عبارة عن تفاعل بين مجموعة من الأفراد والجماعات، يتم بينها تبادل المعارف الذهنية والمشاعر الوجدانية بطريقة لفظية وغير لفظية.

^٣ - طلعت منصور: (سيكولوجية الاتصال)، عالم الفكر، الكويت، المجلد ١١، السنة ١٩٨٠، ص: ١٠٧.

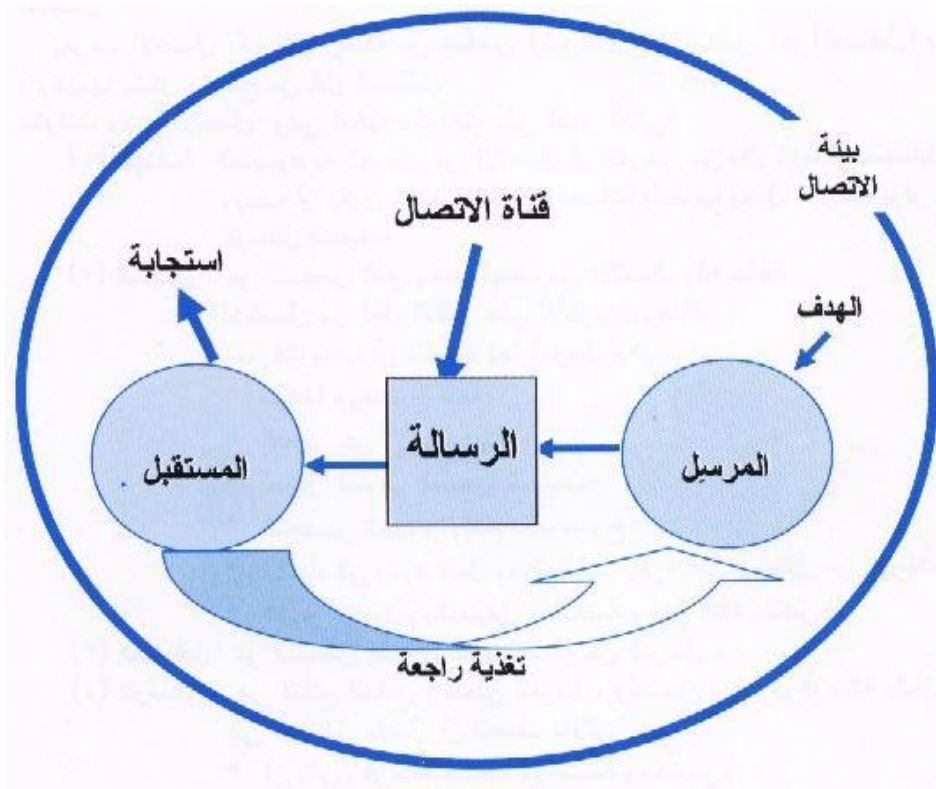
^٤ - Françoise Raynal and Alain Rieunier: **Pédagogie: Dictionnaire des concepts clés**, 1977, ESF éditeur Paris, P:76.

^٥ - العربي أسليماني ورشيد الخديمي: **قضايا تربوية**، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٥ م، ص: ٣١.

وتركز الصورة المجردة للتواصل على ثلاثة عوامل أساسية:

- ① **الموضوع:** وهو الإعلام والإخبار؛
- ② **الآلية:** تتمثل في التفاعلات اللفظية وغير اللفظية؛
- ③ **الغائية:** الهدف من التواصل ومقصدته البارزة (البعد المعرفي أو الوجداني أو الحركي).

وهكذا، يمكن القول: إن الاتصال أو التواصل عبارة عن عملية نقل، واستقبال للمعلومات بين طرفين أو أكثر. ويستند هذا التواصل، في سياقاته المتنوعة، إلى التغذية الراجعة (Feed Back)، عندما يحدث سوء الاستقبال أو الاستيعاب أو التشويش أو الانحراف الانزياحي.



المبحث الثاني: أنواع التواصل

يمكن الحديث عن أنواع عدة من التواصل الإنساني والآلي والسميائي، فهناك: التواصل البيولوجي، والتواصل الإعلامي، والتواصل الآلي، والتواصل السيכולوجي، والتواصل الاجتماعي، والتواصل

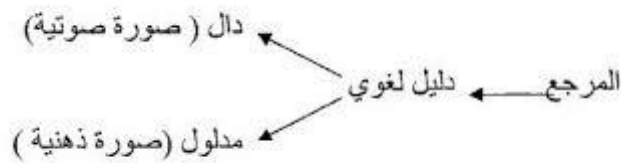
السيميوطيق، والتواصل الفلسفي، والتواصل البيداغوجي، والتواصل الاقتصادي، والتواصل الثقافي... وفي هذا الصدد، يقول **طلعت منصور**: "إن وظيفة الاتصال تتسع لتشمل آفاقاً أبعد. فكثير من الباحثين يتناولون الاتصال، كوظيفة للثقافة، وكوظيفة للتعليم والتعلم، وكوظيفة للجماعات الاجتماعية، وكوظيفة للعلاقات بين المجتمعات، بل ويعتبرون الاتصال كوظيفة لنضج شخصية الفرد، وغير ذلك من جوانب توظيف الاتصال".^٦

ويرتبط التواصل بعدة علوم ومعارف، يمكن حصرها في: علم التدبير والتسيير، والعلاقات العامة، والبيداغوجيا والديداكتيك، وعلم التسويق (Marketing)، وعلوم الإعلام والاتصال، والفلسفة، والسيمولوجيا...

وسنختار من هذه الأنواع: التواصل اللساني، والتواصل الفلسفي، والتواصل السيميائي، بغية الحديث عنها، والتعريف بها، مرجئين باقي الأنواع التواصلية الأخرى حتى يتيسر ذلك.

المطلب الأول: التواصل من المنظور اللساني

يذهب مجموعة من اللسانيين إلى أن اللغة وظيفتها التواصل كـ **فرديناند دو سوسير** (F.De Saussure) الذي يرى، في كتابه (محاضرات في اللسانيات العامة) (١٩١٦)، أن اللغة نسق من العلامات والإشارات والدوال، هدفها التواصل والتبليغ، وخاصة أثناء اتحاد الدال مع المدلول بنيويًا، أو أثناء تقاطع الصورة السمعية مع المفهوم الذهني. وهو المفهوم نفسه الذي كان يرمي إليه تقريباً **ابن جني** في كتابه (الخصائص)، عندما عرف اللغة بأنها "أصوات يعبر بها قوم عن أغراضهم".^٧



^٦ - طلعت منصور: (سيكولوجية الاتصال)، ص: ١٠٨.

^٧ - ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الجزء الأول، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط ١١، ص: ٣٣.

ويعرف أندري مارتيني (**André Martinet**) اللغة على أساس أنها تلفظ مزدوج، وظيفتها التواصل. ويعني هذا أن اللغة يمكن تقسيمها إلى تفصل أول هو المونيمات (الكلمات). أما التفصل الثاني، فهو الفونيمات والمورفيمات. إذا أخذنا كلمة (يلعبون)، فهي تتكون من مونيم (لعب)، وفونيمات صوتية (الام، والعين، والباء)، ومورفيمات نحوية وصرفية، مثل: ياء المضارعة، وواو الجماعة فاعل). لكن الفونيمات لا يمكن تقسيمها أكثر، فهي لا تنجز إلى وحدات أصغر منها. لأن الصوت مقطع لا يتجزأ. وإذا جمعنا الفونيمات والمورفيمات مع بعضها البعض، فإننا نكون - في هذا الصدد - مونيمات، وإذا جمعنا الكلمات بين بعضها البعض، فإننا نكون جملاً، وبالجملة نكون الفقرات والمتواليات، وتكون الفقرات ما يسمى بالنص. ومن ثم، يكون النص - تأليفاً واستبدالاً - ما يسمى باللغة التي من أهدافها الأساسية التواصل.

ويذهب رومان جاكبسون (Roman Jakobson) إلى أن اللغة ذات بعد وظيفي، وأن لها ستة عناصر، وست وظائف: المرسل ووظيفته انفعالية، والمرسل إليه ووظيفته تأثيرية، والرسالة ووظيفتها جمالية، والمرجع ووظيفته مرجعية، والقناة ووظيفتها حفاظية، واللغة ووظيفتها وصفية. وهناك من يضيف الوظيفة السابعة، وهي الوظيفة الأيقونية.

وإذا كان الوظيفيون يرون أن اللغة واضحة، تؤدي وظيفة التواصل الشفاف بين المتكلم والمستمع، فإن أزوالد دوكرو (**Ducrot**) يرى، خلاف ذلك، أن اللغة ليست دائماً لغة تواصل واضح وشفاف، بل هي لغة إضمار وغموض وإخفاء. ويعني هذا أن الفرد قد يوظف اللغة، في سياق اجتماعي معين، للتمويه والتخفية وإضمار النوايا والمقاصد. ويكون هذا الإضمار اللغوي ناتجاً عن أسباب دينية واجتماعية ونفسية وسياسية وأخلاقية. فمهرب المخدرات لا يستعمل اسم مهرباته بطريقة مباشرة، بل يستعمل الرموز للإخفاء، كأن يقول لصديقه: هل وصلت الحناء إلى هولندا؟ كما أن أسلوب الأمر في الشريعة الإسلامية يستعمل للجوب والدعاء والندب، وهذا يعني أن اللغة فيها أوجه دلالية عدة؛ مما يزيد من غموضها، ويؤكد عدم شفافيتها التواصلية.

ومن جهة أخرى، يذهب رولان بارت (Roland Barthes) بعيدا في تأويلاته للغة الإنسانية، إذ اعتبر اللغة بعيدة عن التواصل، إذ جعلها لغة سلطة مصدرها السلطة. ويعني هذا أن الإنسان عبد للغة، وحر في الوقت نفسه. فعندما يريد المتكلم أن يتحدث لغة أجنبية، فهو خاضع لقواعدها وتراكيبها، ومقيد بمنظومتها الثقافية. ولكنه في الوقت نفسه، يوظف هذه اللغة كيفما يشاء، ويطوعها جماليا وفنيا. فلقد استبدت اللغة الفرنسية كثيرا بالشعب الجزائري لمدة طويلة، فأخضعت لقواعدها وسننها اللساني؛ وعلى الرغم من ذلك نجد بعض الأدباء الجزائريين، بقدر ما هم خاضعون لهذه اللغة الأجنبية، يتخذونها سلاحا لهم بكل حرية للتنديد بالاستعمار الفرنسي ونقده وتعريته والهجوم عليه، بتطويع تلك اللغة وتعريبها أو جزأرتها^٨. كما تفرض السلطة الحاكمة اللغة التي تناسبها على المجتمع لفرض سيطرتها السياسية والإيديولوجية. فبالقوة، قد تفرض اللغة. وفي الوقت نفسه، تمنح اللغة قوة الحكم والسلطة السياسية للفئة الحاكمة.

وهكذا، نستنتج أن اللغة قد تكون أداة للتواصل الشفاف، كما يمكنها أن تكون لغة للإضمار والتمويه والإخفاء، كما يمكن أن تكون أداة للسلطة على حد سواء.

المطلب الثاني: التواصل من المنظور الفلسفي

طرح مفهوم الأنا والغير في الخطاب الفلسفي كثيرا من الإشكاليات التي تنصب كلها في كيفية التعامل مع الغير، وكيف يمكن للأنا النظر إلى الغير؟!

يذهب الفيلسوف الألماني هيجل إلى أن العلاقة بين الأنا والغير هي علاقة سلبية قائمة على الصراع الجدلي، كما توضح ذلك نظريته المسماة بجدلية السيد والعبد. أما الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر، فيرى أن الغير ممر ووسيط ضروري للأنا إلا أن الغير جحيم لا يطاق؛ لأنه يشيء الذات أو الأنا. لهذا، يدعو سارتر إلى التعامل مع الغير بحذر وترقب وعدوان، وأنه يستحيل التعايش بين الأنا والغير أو التواصل بينهما، مادام الغير يستلج حرية الأنا، ويجمد إرادته. لذلك، قال قولته المشهورة: "أنا، والآخرين إلى الجحيم".

لكن ميرلوبونتي رفض نظرية سارتر التجزيئية العقلانية، واعتبر أن العلاقة بين الأنا والغير إيجابية قائمة على الاحترام والتكامل والتعاون والتواصل، وأساس هذا التواصل هو اللغة.

^٨ - نسبة إلى الجزائر.

أما الفيلسوف الألماني **ماكس شيلر**، فيرى أن العلاقة بين الأنا والغير قائمة على التعاطف الوجداني، والمشاركة العاطفية الكلية مع الغير، ولا تقوم على التنافر أو البغض والكراهية. في حين، يرى **جيل دولوز** أن العلاقة التواصلية بين الأنا والغير، في المجال المعرفي البنيوي، قائمة على التكامل الإدراكي.

ويعد **يورجين هابرماس** من أهم الفلاسفة الألمان الذين اهتموا بالجانب التواصلية والتفاعل الاجتماعي. ويعتبر أيضاً، عند **توم بوتومور**، المفكر الأكبر لما بعد مدرسة فرانكفورت أو النظرية النقدية الجديدة. و"على الرغم من قربهِ من الماركسية، فإنه يختلف مع ماركس في أمر أساسي: فهو يرى أن ماركس قد أخطأ في إعطائه للإنتاج المادي المركز الأول في تعريفه للإنسان في رؤيته التاريخية، باعتباره تطوراً للأشكال والأنماط الاجتماعية.

ولهذا، يرى **هابرماس** أن التفاعل الاجتماعي هو أيضاً بعد أساسي من أبعاد الممارسة الإنسانية، وليس الإنتاج وحده، وهو ما يوضح فلسفته التي تقوم على مفهوم الاتصال أو التواصل، وعلى أسبقية اللغة، وأولويتها على العمل.

والعقل الاتصالي عند **هابرماس** هو فاعلية تتجاوز العقل المتمركز حول الذات، والعقل الشمولي المنغلق الذي يدعي أنه يتضمن كل شيء، والعقل الأداتي الوضعي الذي يفتت الواقع ويجزئه، ويحول كل شيء إلى موضوع جزئي حتى العقل نفسه.^٩

وقد وجه **هابرماس** انتقادات صارمة للماركسية، فأعاد بناءها على أسس جديدة، وتسمى هذه المرحلة من مراحل مدرسة فرانكفورت بمرحلة ما بعد الماركسية. وقد بدأ مقالاته التي كتبها في الستينيات بتقويم الوضعية العلمية والمنطقية على غرار أسلافه من مفكري معهد فرانكفورت. وقد ميز بين ثلاثة أنواع من المعرفة انطلاقاً من منظور المصلحة التي تحققها للجنس البشري، في كتابه **(المعرفة والمصالح البشرية)** (١٩٧٤م)، وقد حصرها في مصلحة تقنية، ومصلحة عملية، ومصلحة تحررية.

^٩ - **توم بوتومور: مدرسة فرانكفورت**، ترجمة: سعد هجرس، دار أوبا، دار الكتب الوطنية، ليبيا، الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٤م، ص: ١٦٠.

وقد اعتبر هابرماس النموذج النفسي الفرويدي أداة صالحة للنظرية النقدية لتحقيق الثورة التحريرية الإنسانية والمجتمعية. وقد أكد هابرماس أسبقية اللغة على العمل، وأكد أيضا ترابط اللغة والعمل الاجتماعي، حيث من الصعب فصل عنصر على آخر، وخالف بذلك رأي ماركس الذي كان يعتبر العمل هو الذي يخلق الإنسان. ويعتبر هابرماس اللغة هي التي تحقق الاستقلال الذاتي والمسؤولية. وبهذا، يكون هابرماس قد انتقل من نظرية المصالح المعرفية إلى نظرية اللغة والاتصال.

ويلاحظ أن هناك ارتباطا في فكر هابرماس بين التحليل الفلسفي ونظرية المجتمع، وإن تغيرت طبيعة هذا الارتباط بالتدرج. ففي كتابه (المعرفة والمصلحة البشرية)، كان هناك تماثل بين الأنواع الثلاثة من المعرفة مع قسمات رئيسة للحياة الاجتماعية، وهي: العمل، والتفاعل، والتسلط.

وانتقل في المرحلة الثانية إلى تقديم نظرية في الحق لاتضرب بجذورها في المجتمع، وإنما في اللغة بوصفها ميزة عامة للجنس البشري، وتستمر هذه الفكرة في أعمال هابرماس، وإن كان يشدد في الأخير على إعادة بناء النظرية في المجتمع. و" بالفعل، فإن هذا التطور يسجل ابتعادا أكثر عن نظرة مدرسة فرانكفورت في مرحلتها الأخيرة، وأصبح هذا التباعد أكثر صراحة بإعلان هابرماس أنه يتناول النظرية الاجتماعية بوصفه: " منظرا ماركسيا مهتما بمواصلة التعاليم الماركسية في ظل ظروف تاريخية متغيرة على نحو كبير". وهكذا، قدم هابرماس عناصر النظرية الماركسية المعاد بناؤها في عمليتين مهمين خلال السبعينيات، دار أولهما حول مشكلات الشرعية في المجتمعات الرأسمالية إبان مراحل تطورها الأخيرة، والثاني حول المادية التاريخية.^{١٠}

هذا، وقد مال هابرماس إلى البنيوية التكوينية بديلا لفلسفة التاريخ التي تبنتها مدرسة فرانكفورت إبان بدايتها، متأثرا في ذلك بجان بياجيه، ولوسيان كولدمان. وبعد ذلك، شرع في التمييز بين الرأسمالية المنظمة والاشتراكية البيروقراطية بوصفهما الشكلين الرئيسيين للترشيد العقلاني للمجتمعات الحديثة. وبني هابرماس نظريته النقدية في علم الاجتماع على مرتكزين ضروريين هما: الفلسفة والعلم. بيد أن نظرية هابرماس غير تاريخية، ولا تعني بالاقتصاد، كما هو حال النظرية الماركسية الأولى. و" نرى أن السمة الأكثر تميزا لنظرية ماركس، وإسهامها الأكثر أهمية في إقامة علم واقعي عن المجتمع، هي أنها لا تتعامل مع التفاعل الاجتماعي

^{١٠} - توم بوتومور: نفسه، ص: ١١٦.

على وجه العموم، وإنما تتناول علاقة البشر بالطبيعة، والتفاعل فيما بين البشر في عملية الإنتاج، كاتجاهات سائدة ومولدة ومحددة لأشكال أخرى من التفاعل.

إن هذا هو المفهوم الذي منح الماركسية قوتها التفسيرية، والذي لا يزال يمنحها هذه القوة حتى اليوم. لأنه مهما تكن الحاجة إلى إعادة بناء للنظرية الماركسية من أجل فهم المراحل المستجدة من تطور المجتمعات الحديثة بشكل ملائم، ولا سيما دور الدولة وطبيعة الصراعات الطبقيّة، فإنه لا يزال ضروريا البدء من تحليل تنظيم الإنتاج وتسييره، سواء كان ذلك على شكل تسلط رأس المال المتمركز في شركات وطنية أو متعددة الجنسية، أو تسلط الإدارة البيروقراطية للصناعة المؤممة.^{١١}

وعليه، فقد مر فكر هابرماس - حسب سامي خشبة- بمرحلتين رئيسيتين: مرحلة نقد العقل الوضعي الذي ساد الغرب مع نضج الرأسمالية، وتطور العلوم الإنسانية والتجريبية. والمرحلة الثانية التي انشغل فيها هابرماس ببناء نظرية اجتماعية قائمة على حركة تنويرية جديدة أو استئناف القديمة، وصياغة عقلانية تسترشد بالمنجزات العصرية لعلوم الطبيعة والعلوم الاجتماعية، وخاصة علم الاجتماع، وعلوم اللغة والاتصال، وعلم النفس التربوي التطوري.^{١٢}

ويمكن أن نحدد بدورنا مراحل أخرى لفكر هابرماس، ففي المرحلة الأولى، انتقد الوضعية العلمية والمنطقية. وبعد ذلك، انتقل إلى الحداثة ليعتبرها دليلا على العقل التنويري مقابل النزعات اللاعقلانية التقويمية والتفكيكية، وقد اعتبر الحداثة نموذجا للتححرر من كل أنواع السيطرة، حيث تتطابق النظرية والتطبيق، والمعرفة والمصلحة... وركز أيضا على الاتصال بأنواعه باعتباره وسيلة لبناء المعرفة، وليس مجرد تبادلها، كما أشار إلى ذلك في كتابه (الاتصال ونشوء المجتمع) (١٩٧٦). وقد أعاد للقيم والمعايير الاجتماعية أهميتها، وتبنى الكفاءة الأخلاقية مضمونا للاتصال الاجتماعي، وخاصة في كتابه (نظرية الفعل الاتصالي) (١٩٨١م). لكن هابرماس ينتقد (مابعد الحداثة) التاريخية ابتداء من عام ١٩٨٥م، حيث يرجع

١١ - توم بوتومور: نفسه، ص: ١٤٧.

١٢ - توم بوتومور: نفسه، ص: ١٦٠-١٦١.

فشلها إلى اختلال التوازن بين القيمة المعنوية والقيمة المادية؛ مما حول عقلانية التنوير إلى حالة مرضية، وتلك هي الحال التي يصف بها تصور فرانسوا ليوتار وجان بودريار لما بعد الحداثة^{١٣}.

المطلب الثالث: التواصل من المنظور السيميائي

يمثل هذا الاتجاه كل من بريطو (Prieto)، ومونان (Mounin)، وبويسنس (Buyssens)، وكرايس (Grice)، وأوستين (Austin)، وفجنشتاين (Wittgenstein)، وأندري مارتينييه (Martinet). ويرى هذا الاتجاه في الدليل على أنه أداة تواصلية. أي: مقصدية إبلاغية. ويعني هذا أن العلامة تتكون من ثلاثة عناصر: الدال، والمدلول، والوظيفة أو القصد. وهؤلاء اللسانيون والمناطق لا يهتمهم من الدوال والعلامات السيميائية غير الإبلاغ والوظيفة الاتصالية أو التواصلية. وهذه الوظيفة لا تؤديها الأنساق اللسانية فحسب، بل هناك أنظمة سننية غير لغوية ذات وظيفة سيميوطيقية تواصلية. إن السيميولوجيا - حسب بويسنس - هي دراسة لطرائق التواصل والوسائل المستعملة للتأثير على الغير قصد إقناعه أو حثه أو إبعاده. أي: إن موضوع السيميولوجيا هو التواصل المقصود، ولا سيما التواصل اللساني والسيميوطيقي.

هذا، وقد طالب " بعض السيميائيين (بويسنس، وبريطو، ومونان) تلافيا لتفكك موضوع السيميائية، بالعودة إلى الفكرة السوسيرية بشأن الطبيعة الاجتماعية للعلامات، لقد حصروا السيميائية بمعناها الدقيق، في دراسة أنساق العلامات ذات الوظيفة التواصلية. وهكذا، يذهب مونان إلى القول بأنه ينبغي من أجل تعيين الوقائع التي تدرسها السيميائية تطبيق المقياس الأساسي القاضي بأن هناك سيميوطيقا أو سيميولوجيا إذا حصل التواصل^{١٤}.

والتواصل لدى بويسنس هو الهدف المقصود من السيميولوجيا، وهذا ما أكدته بريطو " ينبغي للسيميولوجيا حسب بويسنس، أن تهتم بالوقائع القابلة للإدراك المرتبطة بحالات الوعي، والمصنوعة قصدا من أجل

^{١٣} - توم بوتومور: نفسه، ص: ١٦٢-١٦٣.

^{١٤} - عواد علي: معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة

١٩٩٠، ص: ٨٥.

التعريف بحالات الوعي هذه، ومن أجل أن يتعرف الشاهد على وجهتها... التواصل في رأي بويسنس هو ما يكون موضوع السيميولوجيا"^{١٥}.

وثمة أمارات متنوعة، كالأمارات العفوية، والأمارات العفوية المغلوطة، والأمارات القصدية. ومن هنا، تركز السيميولوجيا على الدلائل القائمة على القصدية التواصلية. ويرى بريطو " أنه من الممكن اعتبار سيميولوجيا التواصل فرعاً من سيميولوجيا تدرس البنيات السيميوطيقية مهما كانت وظيفتها. إلا أن سيميولوجيا من هذا النوع ستلتبس بعلوم الإنسان، منظورا إليها في مجموعها. إذ يبدو أن موضوع علوم الإنسان جميعاً هو البنيات السيميوطيقية التي لا تتميز فيما بينها إلا بالوظيفة التي تتميز، على التوالي، هذه البنيات"^{١٦}.

هذا، ولسيماء التواصل محوران اثنان هما: العلامة والتواصل. ويتشعب كل محور من هذين المحورين إلى أقسام. وهكذا، يمكن أن ينقسم التواصل السيميائي إلى إبلاغ لساني، وإبلاغ غير لساني. فالتواصل اللساني يتم عبر الفعل الكلامي، فعند دوسوسير لا بد من متكلم وسامع، بالإضافة إلى تبادل الحوار عبر الصورة الصوتية والصورة السمعية. بينما التواصل لدى شينون وويفر يتم عبر الرسالة من قبل المتكلم إلى المستقبل، وهذه الرسالة يتم تشفيرها، فترسل عبر القناة، ويشترط فيها الوضوح وسهولة المقصدية لنجاح هذه الرسالة قصد أداء وظيفتها. وبعد التسليم، يقوم المرسل إليه بتفكيك الشفرة وتأويلها.



^{١٥} - عواد علي: نفسه، ص: ٨٥.

^{١٦} - حنون مبارك: دروس في السيميائيات، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧م، ص: ٧٤.

أما التواصل غير اللفظي أو غير اللساني، فيعتمد على أنظمة سننية غير أنساق اللغة، وهي حسب بويسنس مصنفة حسب معايير ثلاثة:

١- معيار الإشارية النسقية: حيث تكون العلامات ثابتة ودائمة، ومن أمثلة ذلك: الدوائر، والمثلثات، والمستطيلات، وعلامات السير.

٢- معيار الإشارية اللانسقية: عندما تكون العلامات غير ثابتة وغير دائمة، على عكس المعيار الأول نحو: الملصقات الدعائية.

٣- معيار الإشارية: حيث العلاقة جوهرية بين معنى المؤشر وشكله، كالشعارات الصغيرة التي ترسم عليها مثلاً: قبعة، أو مظلة. ثم، تعلن على واجهات المتاجر دليلاً على ما يوجد فيها من البضائع.^{١٧}

ويمكن الحديث ضمن هذا المعيار الأخير عن معيار آخر للإشارية ذات العلاقة الاعتبارية أو الظاهرية، " كالصليب الأخضر الذي يشير إلى الصيدلية، ويتفرع عنه أيضاً معيار للإشارية يقيم علاقة بين معنى الرسالة والعلامات التي تنتقل هذه الرسالة بواسطتها. كما يتفرع عنه أخيراً معيار للإشارية ينوب مناب المعيار الأول: فالكلام معيار للإشارية المباشرة، إذ لاشيء يحول بين الأصوات الملتقطة ودلالاتها التي رسمت لها، ولكن المورس يعد معياراً نيايباً، إذ إنه لكي يتوصل إلى المعنى الذي يريد هذا المورس أن ينقله، لابد من الانتقال من العلامة فيه إلى العلامة في الكتابة الصوتية، ثم من العلامة في الكتابة الصوتية إلى العلامة الصوتية.^{١٨}"

وما يهمنا في هذه السيميولوجيا هو موضوع التواصل؛ لأن المقاربة السيميوطيقية للنصوص تبحث في وظائف خطاباتها وملفوظاتها الإبداعية، فتبرز مقاصدها المباشرة وغير المباشرة. وإذا أخذنا العنوان الذي يعلق على أغلفة الدواوين الشعرية أو فوق النصوص، فليس تموقعه زائداً ومجانياً، بل يؤدي دوراً في التدليل، ويساهم في فهم الدلالة. وبالتالي، فالعنوان هو المفتاح الإجرائي الذي يمدنا بمجموعة من المعاني التي تساعدنا على فك رموز النص، وتسهيل مأمورية الدخول في أغواره، واستكشاف تشعباته الوعرة. ويمكن أن

^{١٧} - عواد علي: نفسه، ص: ٩٢.

^{١٨} - عواد علي: نفسه، ص: ٩٢-٩٣.

نستلهم من هذه السيميولوجيا بعض أنماط علاماتها التواصلية، كالأشارة، والأيقون، والرمز، وهذه المصطلحات الإجرائية ذات كفاية منهجية ناجعة في مقارنة الدال العنواني، باعتباره العتبة الحقيقية لولوج عالم المدلولات النصية والسياقية.

المبحث الثالث: أنماط التواصل

يمكن الحديث عن أنواع عدة من التواصل الإنساني. فهناك التواصل مع الذات الذي يكون عن طريق وعي الذات بوجودها وكيونيتها، وتحقيق إنيتها الأنطولوجية ووعيها الداخلي بالعالم؛ والتواصل بين الفرد والآخرين؛ لأن إدراك الآخر يساعد الفرد على إدراك ذاته؛ والتواصل بين الجماعات الاجتماعية الذي يسعى إلى تنمية الروح التشاركية، وتفعيل المبدأ التعاوني، وتحقيق التعارف المثمر البناء.

ومن الأنماط التواصلية الأخرى، نذكر: التواصل البشري، والتواصل الحيواني، والتواصل الآلي (السيبرينطيقا)، والتواصل الإعلامي (تكنولوجيا الاتصال بصفة عامة).

المبحث الرابع: مفاهيم التواصل ومكوناته الأساسية

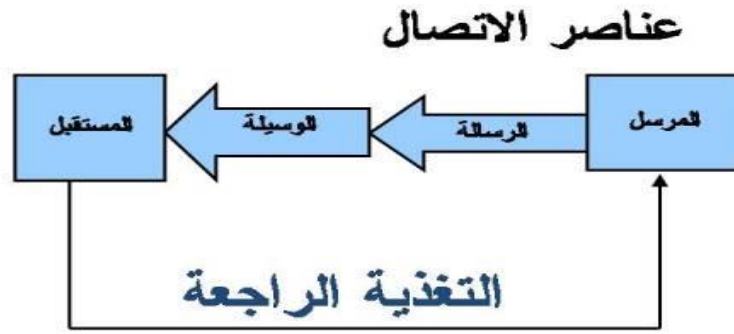
يشترط فعل التواصل استحضار مجموعة من المفاهيم النظرية والعناصر الأساسية التطبيقية، على أساس أنها مكونات جوهرية في عملية التبادل والتفاعل، وخاصة عندما نريد مقارنة نص أو خطاب تواصلية ما، بغية فهم أنسقتها التفاعلية والتبادلية والتواصلية وتفسيرها. وهذه العناصر هي:

- ① زمنية التواصل (temporalité)؛
- ② المكانية أو المحلية (localisation)؛
- ③ السنن أو لغة التواصل (التشفير والتفكيك) (code)؛
- ④ السياق (contexte)؛
- ⑤ رهانات التواصل (enjeux de communication)؛
- ⑥ التواصل اللفظي (اللغة المنطوقة) والتواصل غير اللفظي (اللغة الجسدية والسيميائية) (communication verbale et non verbale)؛

7 إرادة التواصل (بث الإرسالية قد تكون إرادية أو غير إرادية) (volonté de communication)؛

8 الفيدباك أو التغذية الراجعة، بتصحيح التواصل، وتقويته، وتدعيمه، وإنهائه (feedback)؛

9 شبكة التواصل (le Réseau).



المبحث الخامس: نماذج من التواصل

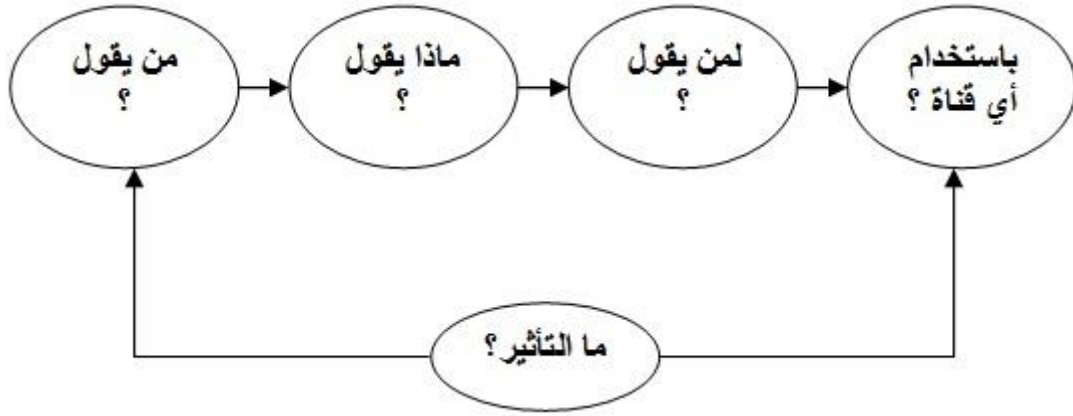
هناك كثير من نظريات التواصل التي حاولت مقارنة نظام التراسل والاتصال وفهمه وتفسيره. لذلك، من الصعب استقراء كل النظريات التي تحدثت عن التواصل، بل سنكتفي ببعض النماذج التواصلية المعروفة، قصد معرفة التطورات التي لحقت هذه النظريات، والعلاقات الموجودة بينها:

المطلب الأول: النموذج السلوكي

وضع هذا النموذج المحلل النفسي الأمريكي لازويل (Lasswell D. Harold) سنة ١٩٤٨ م. ويتضمن هذا النموذج مايلي:

من؟ (المرسل)، يقول ماذا؟ (الرسالة)، بأية وسيلة؟ (وسيط)، لمن؟ (المتلقي)، ولأي تأثير (أثر).

ويرتكز هذا النموذج على خمسة عناصر هي: المرسل، والرسالة، والقناة، والمتلقي، والأثر.



ويمكن إدراج هذا النموذج ضمن المنظور السلوكي الذي انتشر كثيرا في الولايات المتحدة الأمريكية، ويقوم على ثنائية المثير والاستجابة. ويظهر هذا المنظور بجلاء، عندما يركز لازويل على الوظيفة التأثيرية. أي: التأثير في المرسل إليه من أجل تغيير سلوكه إيجابا وسلبا.

ومن سلبيات هذا النظام أنه يجعل المستقبل سلبيا في استهلاكه، ويمتاز منظوره بتملكه للسلطة في استعمال وسائل التأثير الإشهاري في جذب المتلقي، والتأثير عليه لصالح المرسل.

المطلب الثاني: النموذج الرياضي

وضع هذا النموذج في سنة ١٩٤٩م من قبل المهندس كلود شانون (Claude Shannon)، والفيلسوف وارين وايفر (Weaver) Warren. ويركز هذا التصور الرياضي على المرسل، والترميز، والرسالة، وفك الترميز، والتلقي.

ويهدف هذا النموذج إلى فهم الإرسال التلغرافي، بفهم عملية الإرسال من نقطة A إلى B بوضوح دقيق، دون إحداث أي انقطاع أو خلل في الإرسال بسبب التشويش. ويتلخص مبدأ هذا النظام بكل بساطة فيما يلي "يرسل مرسل شفرته المسننة إلى متلق يفك تلك الشفرة".

ومن ثغرات هذا النظام الخطي أنه لا يطبق في كل وضعيات التواصل، خاصة إذا تعدد المستقبلون، وانعدم الفهم الاجتماعي والسيكولوجي أثناء التفاعل التواصل بين الذوات المفكرة. كما يبقى المستقبل سلبيا في تسلمه للرسائل المشفرة.

المطلب الثالث: النموذج الاجتماعي

هو نموذج ريلي وريلي (Riley & Riley) الذي يعتمد على فهم طريقة انتماء الأفراد إلى الجماعات. فالمرسل هو المعتمد، والمستقبل هم الذين يودعون في جماعات أولية اجتماعية، مثل: العائلات، والتجمعات، والجماعات الصغيرة...

وهؤلاء الأفراد يتأثرون، ويفكرون، ويحكمون، ويرون الأشياء بمنظار الجماعات التي ينتمون إليها، والتي بدورها تتطور في حضان السياق الاجتماعي الذي أفرزها. ويلاحظ أن هذا النموذج ينتمي إلى علم الاجتماع، وخاصة علم النفس الاجتماعي، حيث يرصد مختلف العلاقات النفسية والاجتماعية بين المتواصلين داخل السياق الاجتماعي. وهذا ما يجعل هذا النظام يساهم في تأسيس علم تواصل الجماعة (la communication de groupe).

ومن المفاهيم التواصلية المهمة داخل هذا النظام، نجد: مفهوم السياق الاجتماعي، والانتماء إلى الجماعة.



المطلب الرابع: النموذج اللساني

إن الذي وضع هذا النموذج اللساني الوظيفي هو رومان جاكبسون (Roman Jakobson) في سنة ١٩٦٤ م، حينما انطلق من مسلمة جوهرية ألا وهي أن التواصل هو الوظيفة الأساسية للغة، وارتأى

أن اللغة تتضمن ستة عناصر هي: المرسل، والرسالة، والمرسل إليه، والقناة، والمرجع، واللغة. ولكل عنصر وظيفة خاصة: فالمرسل وظيفته انفعالية تعبيرية، والرسالة وظيفتها جمالية من خلال إسقاط محور الاستبدال على محور التركيب، والمرسل إليه وظيفته تأثيرية وانتباهية، والقناة وظيفتها حفاظية، والمرجع وظيفته مرجعية أو موضوعية، واللغة أو السنن وظيفتها (هـ) لغوية أو وصفية.

وهناك من يزيد الوظيفة السابعة إلى الخطاب اللساني، وهي الوظيفة الأيقونية، بعد ظهور كتابات جاك دريدا (J. Derrida)، وانبثاق السيميوطيقا التواصلية.

وقد تأثر جاكبسون، في هذه الخطاطة التواصلية، بأعمال فرديناند دوسوسير (Ferdinand. De Saussure)، والفيلسوف المنطقي اللغوي جون أوسطين (John L. Austin).

المطلب الخامس: النموذج الإعلامي

يقوم هذا النموذج الإعلامي على توظيف التقنيات الإعلامية الجديدة، كالحاسوب، والإنترنت، والذاكرة المنطقية المركزية في الحاسوب. ومن مرتكزات هذا النموذج: خطوة الاتصال، وخلق العلاقة الترابطية (phase de mise en contact/ connexion)، وخطوة إرسال الرسائل؛ وخطوة الإغلاق (phase de clôture/déconnexion). أي: يستند هذا النموذج الإعلامي إلى ثلاث مراحل أساسية: الشروع في الاتصال، والتشغيل، وإيقاف التشغيل.

المطلب السادس: النموذج التربوي

يتكئ التواصل التربوي على المرسل (المدرس)، والرسالة (المادة الدراسية)، والمتلقي (التلميذ)، والقناة) التفاعلات اللفظية وغير اللفظية)، والوسائل الديداكتيكية (المقرر والمنهاج ووسائل الإيضاح والوسائل السمعية البصرية...)، والمدخلات (الكفايات والأهداف)، والسياق (المكان والزمان والمجزئات)، والمخرجات (تقويم المدخلات)، والفيدباك (تصحيح التواصل، وإزالة عمليات التشويش وسوء الفهم).

هذه نظرة مختصرة إلى مفهوم التواصل، وعناصره، وأنواعه، ومكوناته، ونظرياته. ومن ثم، فالتواصل عبارة عن عملية تبادل للرسائل بين المرسل والمتلقي في سياق ما، بقصد التأثير والتبليغ والإقناع. ومن ثم، فالتواصل

أنواع عدة، ومن أهمها: التواصل اللساني، والتواصل السيميائي، والتواصل التربوي. ويترتب عن هذا التواصل مجموعة من المنظورات والنماذج، مثل: النموذج الإعلامي، والنموذج الرياضي، والنموذج الاجتماعي، والنموذج التربوي، والنموذج اللساني، والنموذج اللساني.

الفصل الثاني:

التواصل اللفظي وغير اللفظي

المبحث الأول: التواصل اللفظي

يشغل التواصل اللغوي الذي يكون بين الذوات المتكلمة وحدات فونيمية ومقطعية مورفيمية ومعجمية وتركيبية. أي: يعتمد التواصل اللغوي على أصوات، ومقاطع، وكلمات، وجمل.

ويتم التواصل اللغوي عبر القناة الصوتية السمعية. أي: يتكئ أساسا على اللغة الإنسانية، ويتحقق سمعيا وصوتيا. فاللغة المنطوقة لها مستوى لغوي، وهو عبارة عن نظام من العلامات الدالة (علاقة الدال بالمدلول بالمفهوم السوسيري) التي هي بمثابة نسق من الوحدات نسميها: وحدات الخطاب.

وتتفق البنيوية والتداولية على اعتبار اللغة وسيلة للتواصل، على عكس التوليدية التحويلية بزعامه نوام شومسكي التي ترى أن اللغة ذات وظيفة تعبيرية. ومن ثم، تقرر أن التواصل ما هو إلا وظيفة إلى جانب وظائف أخرى قد تؤديها اللغة.

وترى المدرسة الوظيفية الأوربية، بشقيها الشرقي والغربي، أن اللغة الإنسانية وظيفتها التواصل. فأندري مارتيني يعرف اللغة- كما قلنا سابقا - على أنها تلفظ مزدوج، وظيفتها الأساسية هي التواصل. ويعني بالتلفظين: المونيمات والفونيمات. وتذهب سيميولوجية التواصل إلى تبني وظيفة المقصدية، ويمثل هذا الاتجاه: جورج مونان، وبريطو، وبويسنس، والمدرسة الوظيفية بصفة عامة.

فالذي يريد أن يدرس اللغة أداة للتواصل، ينبغي له أن يستند إلى علوم لسانية، كعلم الدلالة، والسيميوطيقا، والسيميولوجيا. ويقول نادر محمد سراج: " يتواصل متكلمو لغة إنسانية معينة فيما بينهم بسهولة ويسر، وذلك مرده إلى أن كلا منهم يمتلك ويستخدم في البيئة اللغوية عينها، نسق القواعد نفسه، الأمر الذي يتيح له سهولة استقبال، وإرسال، وتحليل المرسلات اللغوية كافة، هذا ما يحدث مبدئيا عبر ما

نسميه شكل التواصل الكلامي (Communication verbal) وهو الشكل الأكثر انتشارا واستعمالاً^{١٩}.

وكانت الوظيفة التواصلية في اللغة معروفة عند النحاة وعلماء اللغة العربية القدامى، فابن جني يقول في باب: "القول على اللغة وما هي": أما حدها: فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم^{٢٠}.

أما علماء اللغة، فقد عرضوا بدورهم لموضوع وظيفة اللغة، فاتفق أغلبهم على أن وظيفتها هي التعبير والتواصل والتفاهم، ويبرز في هذا المجال الألسني الفرنسي أندريه مارتيني الذي يؤكد - بدوره ومن خلال كلامه عن اللغة الإنسانية باعتبارها مؤسسة من المؤسسات الإنسانية - أن هذه الأخيرة "إنما تنتج عن الحياة في المجتمع، وهذا هو تماما حال اللغة الإنسانية التي تدرك بشكل أساسي كأداة للتواصل"^{٢١}.

ويسير في هذا الاتجاه لسانيو التيار البراجماتي أو الذرائعي أو التداولي، كقنان ديك، وهاليداي.

المبحث الثاني: التواصل غير اللفظي

تقوم القناة البصرية بدور أساسي في التواصل، على أساس أن فعل التواصل بين المرسل والمرسل إليه لا يوظف فقط نسقا لغويا منطوقا فحسب، بل إنه يستعمل نظاما من الإشارات والحركات والإيماءات التي تندرج فيما نسميه بالتواصل غير اللفظي، وهو "مجموع الوسائل الاتصالية الموجودة لدى الأشخاص الأحياء، والتي لا تستعمل اللغة الإنسانية أو مشتقاتها غير السمعية (الكتابة، لغة الصم والبكم)"^{٢٢}.

^{١٩} - محمد نادر سراج: (التواصل غير الكلامي بين الخطاب العربي القديم والنظر الراهن)، الفكر العربي المعاصر، لبنان، العددان: ٨٠/٨١، السنة ١٩٩٠م، ص: ٨٤.

^{٢٠} - ابن جني: الخصائص، ص: ٣٣.

^{٢١} - André Martinet: Eléments de linguistique générale. Armand Colin. Paris 1970.p:9.

^{٢٢} - بيير جيرو: السيمياء، ترجمة: أنطون أبي زيد، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٨٤، ص: ١١٩.

وتستعمل لفظة التواصل غير اللفظي للدلالة على " الحركات وهيئات وتوجهات الجسم وعلى خصوصيات جسدية طبيعية واصطناعية، بل على كيفية تنظيم الأشياء والتي بفضلها تبلغ معلومات".^{٢٣}

وهكذا، فإن ملاحظة عادية لما يجري داخل الفصل الدراسي من سلوكيات غير لفظية بين المدرس والتلاميذ، تشكل كنزا من المعلومات والمؤشرات على جوانب انفعالية ووجدانية. كما أنها تكشف عن المخفي والمستتر في كل علاقة إنسانية. ويقول فرويد: " من له عينان يرى بهما يعلم أن البشر لا يمكن أن يخفوا أي سر، فالذي تصمت شفاته يتكلم بأطراف أصابعه، إن كل هذه السموم تفضحه".^{٢٤}

من هنا، يساعدنا التواصل المرئي على تحديد الجوانب التالية:

- ① تحديد المؤشرات الدالة على الانفعالات والعلاقات الوجدانية بين المرسل والمتلقي؛
- ② تعزيز الخطاب اللغوي، وإغناء الرسالة بتدعيمها بالحركات لضمان استمرارية التواصل بين المرسل والمتلقي؛
- ③ يؤثر التواصل غير اللفظي على الهوية الثقافية للمتواصلين من خلال نظام الحركات والإشارات الجسدية.

وقد حدد هاريسون (Harrison) بعض العناصر التي تتصل بالتواصل غير اللفظي، وحصرها في:

- ① كل التعابير المنجزة بواسطة الجسد (حركات، ملامح...)، وتنتمي إلى شفرة الإنجاز؛
- ② العلامات الثقافية كطريقة اللباس، وتمثل في الشفرة الاصطناعية؛
- ③ استعمال المجال والديكور، وتمثل الشفرة السياقية؛

^{٢٣} - بيير جيرو: نفسه، ص: ١٢٢.

^{٢٤} - Edward .T.Hall: la dimension cachée.Ed Seuil.Coll. Point, n° 89.1971,

P:13 .

④ الآثار التي تحدثها أصوات وألوان، مثل: نظام إشارات المرور، وهي الشفرة الوسيطة.^{٢٥}

المبحث الثالث: مستويات خطابية لابد منها

هناك مجموعة من الآليات والمفاهيم الإجرائية التي ينبغي الاعتماد عليها في تحليل أنظمة التواصل، وهي:

- ① **العلامة:** وهي في اللغة العلاقة بين الدال (صورة صوتية) والمدلول (مفهوم ذهني)، فكل خطاب منطوق أو مكتوب هو نسق من العلاقات اللغوية. أما العلامات غير اللغوية، فهي نظام الإشارات غير المنطوقة، كعلامات المرور، والمؤشرات، والرموز المرئية، والملصقات، والإشهار، والصورة، وغيرها.
- ② **الأيقونة:** وهي تمثيل محسوس لشيء قصد تبيان خصائصه وسماته، مثل: صورة شخص أو خريطة بلد.
- ③ **المؤشر (Indice):** وهو ما يخبر عن شيء مستتر كالدخان، فهو مؤشر على النار، إذا لم تكن مرئية، وعلامات الوجه قد تكون مؤشرا على فرح أو غضب أو حزن.
- ④ **الرمز (Symbole):** وهو كل علامة تشير إلى هوية شيء، مثل: الحمامة رمز للسلام، والميزان رمز للعدالة.

ولقد حظي التواصل غير اللفظي - مؤخرا - باهتمام كثير من الدارسين، مع تطور اللسانيات والسميوطيقا وعلم النفس الاجتماعي، حيث "تزايد اهتمام المجتمع العلمي في السنوات الماضية بموضوع التواصل الإشاري أو التواصل غير الكلامي الذي أضحي ميدانا خصبا للحلقات والأبحاث والمؤلفات، فبالإضافة إلى آلاف المقالات وعشرات الكتب التي صدرت...، فقد نظمت مئات الحلقات الدراسية التي خصصت لاستجلاء معالم هذا العلم المستجد، ولإبراز مجالاته التطبيقية العملية"^{٢٦}

إذاً، فالتواصل غير اللفظي هو تواصل بدون استخدام للغة الإنسانية. أي: بدون تحقق سمعي وصوتي. ومن ثم، فالحقبة المعاصرة هي التي شهدت توسع مفهوم التواصل المتعدد القنوات من خلال أعمال وتأملات

²⁵ - Hall.E.T: (Proxemics: the study of man's spatial relations and boundaries), in: **Man's image in medicine and anthropology**. New-York International University Press 1963.

²⁶ - A regarder Hall: **La demension cachée**. Paris, Seuil, 1966.

علماء العادات وعلماء الإنسان وعلماء الاجتماع، إضافة إلى علماء النفس وأطباء الأمراض العقلية، وكان قد سبق لبعض علماء الإنسان أن أكدوا تعدد قنوات الاتصال في بداية القرن^{٢٧}

وعليه، فإن التواصل غير اللفظي مهم في تمتين العلاقات الإنسانية والبشرية، ويساهم في كشف رضا الأفراد وانفعالاتهم داخل جماعات معينة، واستخلاص مميزاتهم الثقافية والحضارية، وتبيان مقوماتهم السلوكية والحركية في التعامل مع الأشياء والمواقف داخل سياقات معينة. بيد أن الخطاب الإشاري أو الحركي غير كاف لتأدية كل الرسائل بوضوح وشفافية، فلا بد أن يعزز بالتفاعلات اللفظية التي تزيل كل إبهام وتشويش عن كل إرسالية غير لفظية في مجال التواصل. ومن ثم، فالمعرفة الضمنية^{٢٨} بالدلالات الاجتماعية كنسق إشاري ما ضرورية وأساسية لنجاح أية عملية تواصل إنساني، وبالرغم من ذلك، فإن التواصل الإشاري يبقى عرضة لسوء التفسير أو اللبس، وصولاً إلى سوء التقدير، حتى أيضاً، لأفراد البيئة اللغوية الواحدة، وما يمكن استخلاصه كملاحظة أولية في هذا المجال هو أنه لا يمكن للتواصل الإشاري أن يعتمد كقناة وحيدة وأساسية للتخاطب، بل يجب أن تكون الأولوية للغة المنطوقة التي تؤدي في أغلب الحالات والظروف إلى اتصال أوضح، وأكثر دقة وأسرع دلالة، وبالتالي، إلى تفاهم أفضل^{٢٨}

ولقد ركز الباحثون كثيراً، في دراساتهم وأبحاثهم، على التواصل اللفظي، مهملين السلوكيات غير اللفظية وشبه اللغوية: "وإذا كان التواصل اللفظي وغير الكلامي يشكلان إحدى سمات السلوك البشري. فمن باب أولى أن نعيد إلى الأذهان أن الباحثين ركزوا جهودهم سابقاً على الاعتناء بشكل أساسي بالجوانب الكلامية لهذا التواصل متجاهلين، وحسب التقليد، الرموز غير الكلامية التي كانوا ينسبونها عادة للتنوع الصوتي (كيفية صوتية، تنعيم، وقفة) أو لغير الصوتي (نظرة، تعبير وجهي، إشارات، وصفة الجسم وحركته)، بالرغم من تزايد الاهتمام الموجه إلى التحليل التحادثي (Indicatives) إما للقواعد الاجتماعية، وإما للحالات النفسية للمرسل^{٢٩}

²⁷ - Hall: (Proxemics), In: Current Anthropology, 1968, p: 108.

^{٢٨} - بيير جيرو: نفسه، ص: ١١٨.

^{٢٩} - بيير جيرو: نفسه، ص: ١١٨.

ومن هنا، فإن المقاربة الوظيفية لدور هذه الرموز غير الكلامية في التفاعل الاجتماعي هو " ما ينبغي التركيز عليه والسعي لإبرازه في أية دراسة مستقبلية من هذا النوع، وإذا كان الكلام يشكل النشاط المركزي لنمط التفاعل الإنساني الذي نسميه عادة بالتحدث، فإن الأهمية تكمن في اعتبار هذا التحدث ورؤيته كظاهرة للاتصال المتعدد القنوات الذي يشتمل على علائق متبينة جدا للرموز كلامية كانت أم غير كلامية.

إن ما يجب أن نخلص إليه في هذه المقاربة التي سعينا من خلالها أن أية دراسة للرموز غير الكلامية يجب أن لا يتم بشكل منعزل، كعزل القناة البصرية عن القناة السمعية، بل بالأحرى ينبغي إيلاء وظائف الأشكال العام (Configurations) المتعددة القنوات للرموز أهمية كبرى نظرا لدورها المميز في هذا المجال³⁰.

وعليه، يمكن للتواصل أن يتحقق " أيضا بواسطة أشكال تخاطبية ليست بالضرورة كلامية تحل أحيانا محل التواصل الكلامي، لا بل وتصاحبه أحيانا كثيرة. وهذه الأشكال الأخيرة التي تعرف بالتواصل غير الكلامي أو باسم اللغة اللامنطوقة أو غير اللفظية ليست حكرا على الإنسان، بل هي معروفة أيضا لدى الفصائل الحيوانية التي يتصل بعضها ببعض عن طريق الأصوات والحركات والإشارات³¹.

ويسمح التواصل غير اللفظي بفهم التحفيزات والتفاعلات الإنسانية. وقد كان هذا التواصل غير السلوكي وراء عدة بحوث مهمة تعتمد على تقنيات الفيديو، وماكينو تروسكوب، والحاسوب في مختلف التخصصات، مثل: علم النفس، وعلم النفس الاجتماعي، واللسانيات، والسميوطيقا، والأنثروبولوجيا، والإثنولوجيا (علم العادات).

وقد وقع تقدم ملحوظ ومعتبر في هذه المجالات، على عكس البيداغوجيا التي هي بعيدة عن هذا المجال، ولم تخض غمار هذا البحث إلا مؤخرا.

³⁰ - A regarder Corraze Jacques: les communications non verbales.ED : PUF.1980.

³¹ - Julia Kristeva: Recherches pour une sémanalyse.ED, n°:96.Paris 1969.P:39.

ولقد قدم علماء الإثنولوجيا أبحاثا مهمة في هذا الصدد، فحضور التواصل غير اللفظي يتجلى، بشكل واضح، في المسرح والميم والموضة والرقص والرسم والنقش والنحت، غير أن السلوكيات غير اللفظية لم تثر انتباه المفكرين والباحثين قديما وحديثا، على الرغم من استعماهم لها.

وإذا كانت الأنساق الدلالية تنقسم إلى قسمين كبيرين: أنساق دلالية طبيعية وأنساق دلالية اجتماعية، فإن الأنساق الدلالية الاجتماعية تنقسم إلى أنساق دلالية اجتماعية لفظية، وأنساق دلالية اجتماعية غير لفظية. فالأنساق الدلالية الطبيعية هي تلك الأنساق التي توجد في حضن الطبيعة. ومن سمات هذه الأنساق أنها غير مؤسسية، فالإنسان هو الذي وظفها داخل مجال الدلائل، وأسند إليها دلالات معينة. أما الأنساق الدلالية الاجتماعية، فهي " في الآن نفسه الأنسنة وكل ما نتج عنها. أي: إنها ما قبل التاريخ الإنساني والتاريخ الإنساني منظورا إليه من زاوية السيميوطيقا العامة"^{٣٢}

أما الأنساق الدلالية الاجتماعية، فهي تلك الأنساق التي تتميز بكونها مؤسسية، وأنها أيضا من نتاج عمل الإنسان، وهي تنفرع إلى أنساق لفظية وغير لفظية. فاللفظية هي " تلك الأنساق التي لها لغات ولها خصوصياتها المتنوعة وإعدادات، مثل: الأنواع السننية. وتقوم هذه الأنواع السننية على التمايزات التي يحدثها الإنسان في مادة الصوت"^{٣٣}

ومن الواضح أن روسي لاندي" يقصي من هذا النوع من الأنساق اللغة الشعرية واللغات التقنية واللغة الطقوسية واللغات الإيديولوجية المختلفة ولغة الرياضيات. وعلاوة على ذلك، فإن مفهوم الأنساق اللفظية عنده لا يأخذ بعين الاعتبار تمايز بين ماهو منطوق وماهو مكتوب، فهذا المفهوم يشملهما معا"^{٣٤}.

أما الأنساق الدلالية الاجتماعية غير اللفظية، فهي تلك التي " لا تستعمل أنواعا سننية قائمة على أصوات بها، ولكنها تستعمل أنواعا سننية قائمة على أنماط أخرى من الأشياء، هاته الأشياء الأخرى التي يسميها

^{٣٢} - حنون مبارك: دروس في السيميائيات، ص: ٢٢.

^{٣٣} - حنون مبارك: نفسه، ص: ٢٢.

^{٣٤} - حنون مبارك: نفسه، ص: ٢٢-٢٣.

بالأجسام هي إما أشياء توجد قبلها في الطبيعة، وإما أن الإنسان أنتجها لغايات أخرى، وإما أنها أنتجت لغرض أن تستعمل بوصفها دلائل، أو أنها استعملت باعتبارها دلائل في نفس الفعل الذي نتجت فيه^{٣٥} وتتكون الأنساق غير اللفظية التي لها وظيفة تواصلية مما يلي:

- ١- حركات الأجسام (Kinesic) وأوضاع الجسد (Postural): مثل: التواصل بالإشارات، وتعابير الوجه، وتعابير أخرى، وأوضاع الجسد....
- ٢- الإشارات الدالة على القرب (Proxémique): يتعلق باستعمال الإنسان للمجال المكاني؛
- ٣- التواصل اللمسي والشمي والذوقي والبصري والسمعي إلى درجة نستطيع فيها إبعاد أنساق دلالية غير لفظية أخرى، قائمة أيضا على السمع والبصر؛
- ٤- التواصل الشبهي: هي الأنساق القائمة على أشياء يروضها الإنسان، وينتجها، ويستعملها: ثياب، وحلي، وزخارف، وأدوات مختلفة، وآلات بناء من كل نوع، وموسيقا، وفنون رمزية؛
- ٥- التواصل المؤسسي: المقصود به كل أنواع التنظيمات الاجتماعية، وبالتحديد كل الأنساق المتصلة بروابط القرابة والطقوس والأعراف والعادات والنظم القضائية والديانات والسوق الاقتصادي^{٣٦}. ويمكن تقسيم هذه الأنساق إلى قسمين:

القسم الأول: عبارة عن أنساق دلالية عضوية تحيل على جسم الإنسان. أي: العضوية الإنسانية (حركات الأجسام والموضعية والحواس الخمس). أما القسم الثاني، فيحتوي على أنساق دلالية أدائية. أي: إن الإنسان يقوم بسلوك بواسطة شيء، وهذه الأشياء خارجة عن العضوية الإنسانية.

وفي المقابل، يقسم السيميوطيقي الإيطالي أومبرتو إيكو (Umberto Eco) الأنساق الدلالية إلى ثمانية عشر نسقا. وينطلق في هذا التصنيف من الأنساق التواصلية التي تبدو في الظاهر أكثر طبيعية وعفوية. أي: أقل من خاصيتها الثقافية، وصولا إلى العمليات الثقافية الأكثر تعقيدا. وهذه الأنساق هي:

^{٣٥} - حنون مبارك: نفسه، ص: ٢٣.

^{٣٦} - حنون مبارك: نفسه، ص: ٢٣.

- ١ - سيميوطيقا الحيوان: ويخص الأمر بالسلوكات المتصلة بالتواصل داخل الجماعات غير الإنسانية. ومن ثم، الجماعات غير الثقافية؛
- ٢ - العلاقات الشمسية: كالعطور مثلاً؛
- ٣ - التواصل اللمسي: كالقبلة والصفعة؛
- ٤ - سنن الذوق: ويتعلق الأمر بممارسة الطبخ؛
- ٥ - العلامات المصاحبة لما هو لساني (Paralinguistique): كأنماط الأصوات في ارتباطها مع الجنس والسن والحالة الصحية... ومثل العلامات المصاحبة للغة كالكيفيات الصوتية (علو الصوت، ومراقبة العملية النطقية...)، وكالصوتيات (الأمزجة الصوتية: الضحك، والبكاء، والتنهدات)؛
- ٦ - السيميوطيقا الطبية: وهي تبين لنا علاقة الأعراض بالمرض؛
- ٧ - حركات الأجسام والإشارات الدالة على القرب: ويتعلق الأمر باللغات الإشارية الحركية (Gestuels)؛
- ٨ - الأنواع السننية الموسيقية؛
- ٩ - اللغات الرمزية أو المشكلنة (Formalisés)، مثل: الجبر، والكيمياء، وسنن الشفرة (Morse)؛
- ١٠ - اللغات المكتوبة والأبجديات المجهولة والأنواع السننية السرية؛
- ١١ - اللغات الطبيعية: مثل: اللغة العربية، والفرنسية، والإنجليزية، والإسبانية؛
- ١٢ - التواصل المرئي: مثل: الأنساق الخطية، واللباس، والإشهار؛
- ١٣ - نسق الأشياء: مثل المعمار وعامة الأشياء؛
- ١٤ - بنيات الحكى والسرد؛
- ١٥ - الأنواع السننية الثقافية: مثل: آداب السلوك، والتراتبات، والأساطير، والمعتقدات الدينية القديمة؛
- ١٦ - الأنواع السننية والرسائل الجمالية: مثل علم النفس، والإبداع الفني، والعلاقات بين الأشكال الفنية والأشكال الطبيعية؛
- ١٧ - التواصل الجماهيري: مثل: علم النفس، وعلم الاجتماع، والبيداغوجيا، ومفعول الرواية البوليسية، والأغنية؛
- ١٨ - الخطابة La rhétorique. ٣٧

٣٧ - حنون مبارك: نفسه، ص: ٢٤.

تلكم - إذاً- هي أهم الآليات التواصلية التي تتعلق بلسانيات التواصل اللفظي وغير اللفظي، وهي أساسية في تفكيك الخطابات كيفما كانت، وتركيبها من جديد.

ومن هنا، فالسيمانيات في حاجة ماسة إلى معرفة الأنظمة التواصلية، وتحديد شفراتها السننية، وإرساء مصطلحاتها الإجرائية والتطبيقية لفهم نظام التواصل وتفسيره، وتبيان طرائق الإرسال والتلقي، ورصد الوسائل والمدخلات والمخرجات التي يرتكن إليها التواصل اللفظي وغير اللفظي على حد سواء.

وإذا كانت اللسانيات مؤهلة لدراسة التواصل اللفظي كما يثبت ذلك فرديناند دوسوسير، في كتابه (محاضرات في اللسانيات العامة)، فإن السيميولوجيا أو السيميوطيقا مؤهلة أيضا لدراسة الأنظمة التواصلية غير اللفظية. في حين، يرى رولان بارت، في كتابه (عناصر السيميولوجيا)، أن اللسانيات هي التي تملك القدرة وحدها على رصد التواصل اللفظي وغير اللفظي.

الفصل الثالث:

رومان جاكبسون ولسانيات التواصل



يعد رومان جاكبسون (Roman Jakobson) (١٨٩٦-١٩٨٢م) من أهم رواد الشكلائية الروسية الذين اهتموا بعلم الأدب تنظييراً وتطبيقاً. ويعتبر كذلك من أهم المفكرين واللسانيين في القرن العشرين، ومن أهم رواد التحليل البنيوي في ميادين: اللغة والشعر والفن. وقد عرفت مسيرته العلمية ثلاث مراحل أساسية هي: مرحلة حلقة موسكو اللسانية (١٩١٥-١٩٢٠م) التي اندمجت في الأبويان، ومرحلة حلقة براغ بتشيكوسلوفاكيا (١٩٢٠-١٩٣٠م)، ومرحلة التدريس بالولايات المتحدة الأمريكية في جامعة هارفارد ومعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT). وفي هذه الفترة بالذات، انشغل باللسانيات العامة، وتدريس اللغات والآداب السلافية.

وقد قال عنه الباحث الأمريكي ديفيد كارتر (David Carter)؛ صاحب كتاب (النظرية الأدبية): "كان رومان جاكبسون جسرا بين الشكلائية الروسية والبنوية. وقد كان عضوا مؤسسا لدائرة موسكو اللغوية، حيث تكشف جميع كتاباته عن مركزية النظرية اللغوية في فكره، وخاصة تأثير سوسير. كما كان أحد المؤيدين المتحمسين للشعراء التجريبيين في عام ١٩٢٠م. انتقل جاكبسون إلى تشيكوسلوفاكيا، وساعد على تأسيس دائرة براغ اللغوية المؤثرة. وبسبب الغزو النازي لتشيكوسلوفاكيا في عام ١٩٣٩، غادر البلاد، واستقر أخيرا في الولايات المتحدة في عام ١٩٤١م.^{٣٨}

هذا، وقد خلف لنا رومان جاكبسون مجموعة من الدراسات والكتب القيمة، مثل: (الشعر الروسي الحديث) / ١٩٢١م، و(حول الشعر التشيكي) / ١٩٢٣م، و(أبحاث في اللسانيات العامة) / ١٩٦٣م، و(ثمانية أسئلة حول الشعرية) / ١٩٧٧م...

المبحث الأول: التصور المنهجي

يعد رومان جاكبسون من الشكلائين الأوائل الذين أرسوا دعائم علم الأدب، أو ساهموا في تطوير نظرية الأدب على أسس علمية وموضوعية، من خلال حصر موضوع علم الأدب في دراسة الأدبية (La littérature). ويعني هذا أن علم الأدب أو البويطيقا أو الإنشائية (Poétique) يدرس ما يجعل من الأدب أدبا. أي: التركيز على وظيفة الأدب التي تتأسس على الوظيفة الجمالية أو الشعرية، بإسقاط المحور الاستبدالي على المحور التركيبي، أو الجمع بين الانتقاء الدلالي والعلاقات النحوية. ويعني هذا أيضا أن الأدب يتكون من مواد دلالية وعلاقات نحوية وتركيبية، أو الجمع بين الدلالة والنحو، ضمن علاقات الغياب (الدلالة) من جهة، وعلاقات الحضور (التركيب) من جهة أخرى.

ومن هنا، يتبنى رومان جاكبسون منهجا علميا وصفيا في دراسة الأنواع والأجناس الأدبية، بالتعامل مع الأثر الأدبي على أنه مادة وبناء وشكل وقيمة مهيمنة. وبذلك، فقد تمثل المقاربة البنوية الشكلائية في دراسة النصوص الأدبية بتفكيكها وتركيبها، اعتمادا على المستويات اللسانية: الصوتية، التركيبية، والدلالية، والبلاغية. ومن ثم، فقد كان رومان جاكبسون أول من طبق المنهج البنيوي اللساني على الشعر، حينما

^{٣٨} - دافيد كارتر: النظرية الأدبية، ترجمة: د. باسل المسالمه، دار التكوين، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٠م، ص: ٣٧.

حلل، مع كلود ليفي شتراوس، قصيدة القطط (Les Chats) لشارل بودلير سنة ١٩٦٢م^{٣٩}. وقد درسها الاثنان دراسة داخلية مغلقة، في إطار نسق كلي من الشبكات البنيوية المتفاعلة، بغية البحث عن الدلالة. وقد انصب هذا العمل التشرحي على مقارنة القصيدة تفكيكا وتركيبا، بالاعتماد على اللسانيات البنيوية، مع استقراء المعطيات الصوتية والصرفية والإيقاعية والتركيبية والبلاغية.

كما تمثل رومان جاكسون منهجية تواصلية وظيفية في دراسة اللغة ونظامها التواصلية، ودراسة الفونيمات اللغوية باستقراء سماتها المميزة، في إطار نحو كلي كوني على غرار النحو الكلي لنوام شومسكي (Chomsky).

وعلى العموم، فقد كان رومان جاكسون أول من أرسى البويطيقا أو الشعرية (Poétique)، ضمن رؤى بنيوية ولسانية وشكلانية موضوعية، وميز بين الأجناس الأدبية وفق نظرية القيمة المهيمنة. وهو كذلك أول من سعى إلى دراسة النحو الكلي، انطلاقا من نظرية السمات المميزة في مجال علم الأصوات والفونولوجيا.

المبحث الثاني: الجهود اللسانية

لقد أسس رومان جاكسون، بتنسيق مع تروبوتسكوي (Nikolai Troubetzkoï)، وماتيسوس (Mathesius)، وأندريه مارتيني (Martinet A.)، ووليام لابوف (William Labov)، اتجاهها لسانيا يعرف بالاتجاه البنيوي الوظيفي، وتعد حلقة براغ (Prague) بمثابة الحاضن الرئيسي لهذا الاتجاه اللساني. وإذا كانت البنيوية السوسيرية تهتم بدراسة اللغة فقط، فإن وظيفي براغ يربطون اللغة بوظائفها في المجتمع. أي: يدرسون بنية اللغة وشكلها في علاقة بوظائفها السياقية والاستعمالية، وعلى أساس أن اللغة وظيفتها التواصل داخل المجتمع.

³⁹ --C. Lévi-Strauss et R. Jakobson : («Les Chats" de Charles Baudelaire), **L'Homme**, revue française d'anthropologie, t. II, n° 1, 1962.pp:5-21.

ومن هنا، "تبحث جماعة براغ في وظائف اللغة. أي: استعمالاتها، بالإضافة إلى شكلها وبنيتها. وإذا كان سوسير ينظر إلى اللغة باعتبارها منظومة (System)، فإن جماعة براغ تضيف إلى ذلك بعدين اثنين، وهما: البعد البشري والبعد الأدبي. أي: الوظيفة الاجتماعية والوظيفة الشعرية (مع جاكسون خاصة)"^{٤٠}.

ويعرف رومان جاكسون باهتمامه بالشعرية من جهة، وبالنحو الكلي من جهة ثانية. فعلى مستوى الشعرية، فقد ربط اللغة بستة عناصر هي: المرسل، والمرسل إليه، والرسالة، والمرجع، والقناة، والسّنة. وحدد لكل عنصر وظيفة معينة. ومن ثم، فقد تحدث عن أدبية الأدب، والقيمة المهيمنة في تصنيف الأجناس والأنواع الأدبية. كما تحدث عن تطور الأنساق الأدبية الشكلية، وتعمق في دراسة الشعر في ضوء عناصره البنيوية، سواء أكانت صوتية أم صرفية أم إيقاعية أم تركيبية أم دلالية أم بلاغية، ضمن المحورين الاستبدالي والتركيبي.

ومن الناحية اللسانية، فقد أرسى رومان جاكسون نواكلها في مجال الفونولوجيا. بمعنى أن جميع اللغات يمكن تحليلها "انطلاقاً من مقاييس موحدة (معارية)". وهذه النظرية التي طبقها جاكسون في الفونولوجيا، والتي سيطبقها تشومسكي فيما بعد على التركيب، أتاحت له إبداع نظرية أخرى تعرف بنظرية (السمات المميزة)، وكان له بذلك دور حاسم في إعادة توجيه مجرى اللسانيات في الولايات المتحدة. فقد ظل الوصفيون الأمريكيون، قبل مجيء جاكسون، يشتغلون ضمن فلسفة النسبية؛ إذ طالما اعتقدوا أن اللغات قد تختلف بعضها عن بعض إلى ما لا نهاية. وقد كانوا يعتقدون أن لكل لغة هيكلها الذي يميزها عن غيرها.

أما جاكسون فكان يؤمن أن اللغات قد تختلف فيما بينها فعلاً، ولكن ضمن حدود معينة؛ بحيث تجمعها خواص هي ما أطلق عليه "النحو الكلي". فقد نتحدث لغات مختلفة، بل قد نستعمل في كلامنا أصواتاً متنوعة؛ مثل: الحاء التي توجد في بعض اللغات، وتفتقدها لغات أخرى، لكن نجد السمات ذاتها فيها

^{٤٠} - ابن رشد المعتمد ومحمد خريس: مدارس علم اللغات، المكتبة الثقافية، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة

١٩٩٣م، ص: ٤٩.

جميعاً، مثل: [حلقى]، و [رخو]، و [شديد]... إذاً، تختلف اللغات حقاً، غير أنها في هذه الحالة بمثابة يد واحدة تتفرع إلى أصابع. وتلك هي فرضية النحو الكلي.^{٤١}

وإذا كان البنيويون التوزيعيون الأمريكيون يربطون اللغة بالحضارة التي نشأت فيها، فإن تشومسكي يربطها بالدماع النفسي؛ لأن الناس يتفقون في السمات المميزة للأصوات؛ وهذه الأصوات لها ارتباط بالجهاز الصوتي والنفسي. أي: إن رومان جاكبسون يستدل بحجة أخرى على النحو الكلي. "فعلى عكس البنيويين الأمريكيين السابقين لجاكبسون، وهم الذين كانوا يربطون كل لغة بحضارتها الخاصة (كما جاء في فرضية ساير وورف)، ويطبعونها بطابع اجتماعي، نجد جاكبسون يعتقد غير ذلك. فاللغة، بالنسبة إليه، لها علاقة بالنفس / الدماغ. إذ لا يتوقف الأمر عند حقيقة أننا نتشارك في تلك السمات؛ مثل: [شفوي]، و [رخو]... التي تبين وجود تشابه في النطق مخرجاً وصفة، بل يتعداه لإثبات غاية أهم من ذلك. لقد أراد جاكبسون أن يوضح ما وراء المجرى الصوتي إلى حيث الدماغ. فالصفات المميزة (المقدرة ببضع عشرة) لها حقيقة نفسية، وهي متماثلة عند بني الإنسان جميعهم.

إن الدماغ البشري هو ذاته بالنسبة لجميع البشر، ولهذا الحقيقة دلالات تتعلق بلغة الطفل. فإذا أخذنا طفلاً مغرباً إلى الصين، فإنه يكتسب الصينية دون أدنى صعوبة في بضع سنوات، شرط ألا يتجاوز عمره ما يعرف في اللسانيات بـ "مرحلة الليونة"، تماماً كما لو فعلنا ذلك بطفل صيني، وذهبنا به إلى إنجلترا، فإنه يكتسب اللغة الإنجليزية كأنها لغة أمه.^{٤٢}

هذا، وقد أوجد جاكبسون مجموعة من السمات المميزة والأوصاف المحددة للفونيمات، بغية التمييز بينها صوتياً ودلالياً. ومن قبل، كان اللسانيون يشتغلون على الفونيم ضمن اللغة المجردة. في حين انصب اهتمام جاكبسون على المميّز. بمعنى أنه إذا كان الفونيم هو أصغر وحدة عند اللسانيين، فإن جاكبسون يقسم هذا الفونيم إلى أصغر من ذلك. أي: إلى مجموعة من السمات والقيم الخلافية.

^{٤١} - ابن رشد المعتمد ومحمد خريص: مدارس علم اللغات، ص: ٥٦.

^{٤٢} - ابن رشد المعتمد ومحمد خريص: نفسه، ص: ٥٧.

هذا، وقد وضع جاكبسون نظاما من اثني عشرة خاصية صوتية وتنغيمية تطبق على الصوامت والصوائت، إن تلفظا وإن سمعا؛ حيث ميز بين مجموعة من السمات المميزة؛ مثل: صامت/ صائت، ومجهور/ مهموس، ونهائي/ لانهائي، وانفجاري/ غير انفجاري، وهادئ/ حادّ، وممتد/ باهت.

وفي العربية، يمكن الحديث عن مجموعة من السمات المميزة: صائت، وصامت، ومهموس، ومجهور، وشديد، ورخو، ومائع/ متوسّط، وتكراري، وشفوي، ولثوي، وغاري، وطبقي، وحلقي، وحنجري، ولهوي...

وعلى العموم، فقد كانت جهود رومان جاكبسون اللسانية متميزة وواضحة بشكل كبير، فقد ترك تأثيرا ملحوظا في لسانيات القرن العشرين، وخاصة في مجال الفونولوجيا. ويمكن حصر اهتماماته اللسانية الأخرى في دراسة الأفازيا، والعناية بالتصنيف اللساني، والاهتمام بالسمات المميزة للأصوات والفونيمات...

المبحث الثالث: تأسيس الشعرية

لقد ارتبطت الشعرية أو ما يسمى أيضا بالإنشائية أو البويطيقا (Poétique) برومان جاكبسون⁴³، فقد أسسها على أسس وصفية وعلمية موضوعية، بالتركيز على الأدبية (Littérarité)، والقيمة المهيمنة، والعناصر البنيوية التي تميز جنسا أدبيا عن الآخر. ومن ثم، فقد كان يقارن بين لغة الشعر ولغة النثر العادية، في ضوء مقارنة بنيوية لسانية، وكان هدفه الأساس هو البحث في أدبية النص استبدالا وتأليفا. وقد ركز كثيرا على دراسة الشعر لسانيا، باحثا عن قواعده وقوانينه بمقارنته بالكلام اليومي. ومن ثم، فقد كان يعنى باستقراء المعطيات النصية الصوتية والإيقاعية والنغمية والصرفية والتركيبية والبلاغية والدلالية، ضمن نسق تفاعلي كلي، تترابط فيه العناصر البنيوية جميعها إيجابا وسلبا، تفكيكا وتركيبا. وقد اهتم بالخصوص باللغة الشعرية، وربط الصوت بالدلالة، مع تصنيف المعطيات المبنية في النص الشعري؛ بغية رصد الوظيفة الجمالية أو الشعرية التي تتحقق في النص، ودراسة الدوالّ اللفظية باعتبارها علامات سيميائية.

⁴³ -R. Jakobson: (Linguistique et poétique), Essais de linguistique générale, t. I, Minuit, 1963.

ومن جهة أخرى، فقد اهتم بالتوازي أو التعادل حينما تحدث عن الوظيفة الجمالية القائمة على إسقاط محور الانتقاء أو الدلالة على محور التركيب أو التأليف. ومن ثم، لا يقتصر التوازي على الإيقاع فقط، بل يمتد ليشمل التركيب والدلالة معا. وفي هذا الصدد، يقول جاكبسون: "كل مقطع، في الشعر، له علاقة توازن بين المقاطع الأخرى في المتتالية نفسها، وكل نبر لكلمة يفترض فيه أن يكون مساويا لنبر كلمة أخرى، وكذلك فإن المقطع غير المنبور يساوي المقطع غير المنبور، والطويل عروضا يساوي الطويل، والقصير يساوي القصير، وحدود الكلمة تساوي حدود الكلمة، وغياب الحدود يساوي غياب الحدود، وغياب الوقف يساوي غياب الوقف. فالمقاطع تحولت إلى وحدات قياس، والشيء نفسه تحولت إليه أجزاء المقاطع وأنواع النبر." ^{٤٤}

وأهم مقال فصل فيه جاكبسون مبدأ التوازي أو التعادل مقالته المعنون بـ(نحو الشعر وشعر النحو) ^{٤٥}. بيد أن هذا المبدأ قد انتقده كثير من الباحثين، خاصة جان كوهن ^{٤٦}؛ وذلك لأن التعادل لا يتوافر في الشعر كله، ولا يتوافر في القصيدة جميعها. ومن ثمة، فإنه ليس مكونا من المكونات الشعرية، وإنما يصح أن يسمى خاصة ثانوية محتملة قد تحضر وقد تغيب. ^{٤٧}

كما اهتم جاكبسون، ضمن تحليله للوظيفة الجمالية أو الشعرية، بالمحورين: الاستبدالي والتركيب، وعلاقتهما بالاستعارة والكناية. فقد أثبت أن الاستعارة شعرية، أما الكناية فهي واقعية. وقد تطورت هذه الفكرة نتيجة البحث في الاضطراب العقلي، وفقدان القدرة على الكلام (الأفازيا) ^{٤٨}. وفي هذا الإطار، يقول حميد حمداني: "لقد كان في إمكان البلاغة القديمة أن تعتبر مبحث الكناية مدخلا لدراسة الفنون التمثيلية، غير أن الأبحاث ظلت مقتصرة على النماذج الجزئية، ولم تتجاوز إطار العبارة النثرية الواحدة أو الأبيات الشعرية القليلة. ولقد كان الفضل في التنبيه إلى العلاقة الوثيقة القائمة بين الكناية والفنون القصصية والواقعية بشكل خاص لرومان جاكبسون في بحثه القيم حول الحبسة: (مظهران للغة ونمطان من الحبسة). فقد لاحظ أن

⁴⁴ - R. Jakobson : **Essais de linguistique générale**, Paris, Minuit, 1963, 220.

⁴⁵ - R. Jakobson : **Huit questions de Poétique**, Paris, Point, 1977, pp : 88-108.

⁴⁶ - Jean Cohen : **Le haut Langage**, Paris, Flammarion, 1979, p : 16.

^{٤٧} - محمد مفتاح: **في سيمياء الشعر القديم**، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م، ص: ٤٦.

^{٤٨} - شرحها في كتابه (أصول اللغة) سنة ١٩٥٦، وقد نشر الكتاب بالاشتراك مع موريس هالي (M. Hally).

الإنسان القادر على التعبير باللغة مزود بملكتين ضروريتين: ملكة الاختيار والتعويض، وملكة التركيب والربط. وإذا أصيبت إحدى الملكتين بخلل، أدى ذلك إلى اختلال إحدى وظيفتي اللغة، وهكذا فاختلال ملكة الاختيار والتعويض يؤدي إلى عدم القدرة على خلق العلاقات الاستعارية، واختلال ملكة التركيب والربط يؤدي إلى فساد القدرة على خلق العلاقات الكنائية. ويرى أن أسلوب الفرد يتبلور عبر معالجته لمعطيات اللغة، من خلال علاقات المماثلة (وتسمح بها ملكة الاختيار والتعويض)، وعلاقات المجاورة (وتسمح بها ملكة التركيب والربط)، غير أنه يلاحظ أن الأفراد يختلفون فيما بينهم في توظيف هاتين الملكتين؛ فبعضهم يغلب عنده استعمال الاستعارة، والآخر يغلب عندهم استخدام الكناية، والأمر راجع إلى تأثير الحقل الثقافي وما فيه من نماذج سائدة، كما يتعلق أيضا بالخصائص الذاتية للمبدع نفسه. وهنا، يصل إلى توضيح أن التفاعل الحاصل عند الاستعارة (وقد سماه تفاعلا تعويظيا)، وكذا التفاعل الحاصل عند الكناية (وقد سماه تفاعلا إسناديا) يهيمنان بدرجتين متفاوتتين على بعض التيارات والأنواع الأدبية؛ فالتفاعل التعويضي الممثل بالاستعارة يهيمن في الشعر، بل يطبع الاتجاهين الرومانسي والرمزي، والتفاعل الإسنادي الممثل بالكناية يهيمن في الاتجاه الواقعي، والمعروف أن هذا الاتجاه غلب فيه الإبداع القصصي على الشعر.^{٤٩}

واعتمادا على هذا التمييز البلاغي بين الاستعارة والكناية، يمكن التفريق بين المدارس والاتجاهات الأدبية؛ فالمدرسة الرومانسية استعارية. في حين، تعد المدرسة الواقعية كنائية. وفي هذا، يقول جاكبسون: "وقد تم الاعتراف بأسبقية العملية الاستعارية في المدارس الأدبية الرومانسية والرمزية مرارا وتكرارا، ولكنها لا تزال غير مدركة أن الكناية هي الغالبة، والتي تكمن وراء ما يسمى بالاتجاه الواقعي الذي ينتمي إلى مرحلة وسيطة بين انحدار الرومانسية وصعود الرمزية. وتعارض هذه العملية كل منهما على حد سواء."^{٥٠}

وعليه، فقد أثرى رومان جاكبسون الشعرية بأجوبة كثيرة ومقنعة، كان يطرحها النقاد ودارسو الأدب بإلحاح شديد؛ مثل: ما الذي يميز الأدب؟ وكيف يمكن تصنيف الأجناس والأنواع الأدبية؟ وكيف يمكن التمييز بين المدارس والاتجاهات الأدبية والفنية؟ وكيف يمكن تحليل الأثر الأدبي تحليلًا بنيويًا لسانيا وشكلانيا؟!!

^{٤٩} - حميد لحمداني: أسلوبية الرواية، منشورات دراسات سال، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٩م، ص: ٥٥.

^{٥٠} - نقلا عن دافيد كارتير: نفسه، ص: ٣٩.

المبحث الرابع: اللغة ونظامها التواصلية

يستند التواصل اللساني - حسب رومان جاكبسون - إلى ستة عناصر أساسية⁵¹ هي: المرسل، والمرسل إليه، والرسالة، والقناة، والمرجع، والسنن. وللتوضيح أكثر، نقول: يرسل المرسل رسالة إلى المرسل إليه؛ حيث تتضمن هذه الرسالة موضوعاً أو مرجعاً معيناً، وتكتب هذه الرسالة بلغة يفهمها كل من المرسل والمتلقي. ولكل رسالة قناة حافظة؛ كالظرف بالنسبة للرسالة الورقية، والأسلاك الموصلة بالنسبة للهاتف والكهرباء، والأنابيب بالنسبة للماء، واللغة بالنسبة لمعاني النص الإبداعي... ويعني هذا أن اللغة ذات بعد لساني وظيفي، ولها ستة عناصر، وست وظائف: المرسل ووظيفته تعبيرية أو انفعالية، والمرسل إليه ووظيفته تأثيرية أو انتباهية، والرسالة ووظيفتها جمالية أو شعرية، والمرجع ووظيفته مرجعية، والقناة ووظيفتها تواصلية، والسنن ووظيفته واصفة أو ميتالغوية. وقد انطلق جاكبسون من مسلمة جوهرية، وهي أن التواصل هو الوظيفة الأساسية للغة، وارتأى أن للغة ستة عناصر أساسية، ولكل عنصر وظيفة ما:

⁵¹ - JAKOBSON, R : Essais de linguistique générale, Paris, Éditions de Minuit, 1963.

- عناصر التواصل ووظائف اللغة -

أرقام العناصر والوظائف	عناصر التواصل	مصدر التواصل	الوظيفة
١	المرسل	الرسالة	انفعالية
٢	الرسالة	الرسالة	شعرية
٣	المرسل إليه	الرسالة	تأثيرية
٤	القناة	الرسالة	تواصلية
٥	المرجع	الرسالة	مرجعية
٦	السنن	الرسالة	ميتالغوية

وقد تأثر جاكبسون، في منظوره التواصل، بأعمال فرديناند دوسوسير (Ferdinand De Saussure)، والفيلسوف المنطقي اللغوي جون أوسطين (John L. Austin).

وعليه، فكثير من النصوص والخطابات والصور والمكالمات الهاتفية عبارة عن رسائل يرسلها المرسل إلى مرسل إليه؛ حيث يحول المتكلم رسالته إلى نسيج من الانفعالات والمشاعر والأحاسيس الذاتية، ويستخدم في ذلك ضمير المتكلم. ومن ثم، يتخذ المرسل بعدا ذاتيا قوامه التعبيرية الانفعالية. بمعنى أن الوظيفة الانفعالية التعبيرية هي التي تحدد العلائق الموجودة بين المرسل والرسالة. وتحمل هذه الوظيفة، في طياتها، انفعالات ذاتية، وتتضمن قيما ومواقف عاطفية ومشاعر وإحساسات، يسقطها المتكلم على موضوع الرسالة المرجعي. أما المرسل إليه، فهو المخاطب الذي توجه إليه رسائل المتكلم بضمير المخاطب بغية إقناعه، أو التأثير فيه، أو إثارة انتباهه سلبا أو إيجابا. ومن هنا، فإن الوظيفة التأثيرية هي التي تقوم على تحديد العلاقات الموجودة بين المرسل والمتلقي؛ حيث يتم تحريض المتلقي، وإثارة انتباهه، وإيقاظه عبر الترغيب والترهيب، وهذه الوظيفة ذاتية بامتياز، ما دامت قائمة على الإقناع والتأثير. إذًا، يتحول الخطاب اللفظي أو غير اللفظي إلى رسالة، وهذه الرسالة يتبادلها المرسل والمرسل إليه؛ فساهمان في تحقيق التواصل المعرفي والجمالي. وهذه الرسالة مسننة بشفرة لغوية، يفككها المستقبل، ويؤولها بلغته الواصفة. وتتجسد هذه الرسالة ذات الوظيفة الشعرية أو الجمالية، بإسقاط المحور الاستبدالي على المحور التأليفي، أو إسقاط محور

الدلالة على محور التركيب والنحو. ويعني هذا أن الوظيفة الجمالية هي التي تحدد العلائق الموجودة بين الرسالة وذاتها، وتحقق هذه الوظيفة أثناء إسقاط المحور الاختياري على المحور التركيبي، وكذلك عندما يتحقق الانتهاك والانزياح المقصود بشكل من الأشكال.

كما تهدف الرسالة، عبر وسيط القناة، إلى الحفاظ على التواصل، وعدم انقطاعه: (آلو.. آلو... هل تسمعي جيدا؟). أي: تهدف وظيفة القناة إلى تأكيد التواصل، واستمرارية الإبلاغ، وتثبيته أو إيقافه، والحفاظ على نبرة الحديث والكلام المتبادل بين الطرفين.

وللغة كذلك وظيفة مرجعية، تركز على موضوع الرسالة باعتباره مرجعا وواقعا وسياقا أساسيا، تحيل عليه تلك الرسالة. وهذه الوظيفة في الحقيقة موضوعية، لا وجود للذاتية فيها؛ نظرا لوجود الملاحظة الواقعية، والنقل الصحيح، والانعكاس المباشر...

وثمة وظيفة أخرى مرتبطة بالسنن وتسمى بالوظيفة الواصفة أو الوظيفة الميتالغوية القائمة على الشرح والوصف والتفسير والتأويل، وتهدف إلى تفكيك الشفرة اللغوية، بعد تسنينها من قبل المرسل. والهدف من السنن هو وصف الرسالة لغويا، وتأويلها وشرحها وفهمها، مع الاستعانة بالمعجم أو القواعد اللغوية والنحوية المشتركة بين المتكلم والمرسل إليه.

المبحث الخامس: القيمة المهيمنة

يرى رومان جاكبسون أن البحث الشكلي قد مر بثلاث مراحل أساسية: المرحلة الأولى هي مرحلة تحليل الخصائص الصوتية للأثر الأدبي. في حين، اهتمت المرحلة الثانية بمشاكل الدلالة في إطار نظرية الشعر. وارتكزت المرحلة الثالثة على إدماج الصوت والمعنى في رحم الكل غير المنقسم. وفي هذه المرحلة بالذات، انتشر مفهوم القيمة المهيمنة (La valeur dominante) بشكل إجرائي واسع^{٥٢}. ويقصد بهذا

^{٥٢} - رومان جاكبسون: (القيمة المهيمنة)، نظرية المنهج الشكلي، ترجمة: إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢م، ص: ٨١.

المفهوم ذلك العنصر البؤري "للأثر الأدبي: إنها تحكم، وتحدد وتغير العناصر الأخرى، كما أنها تتضمن تلاحم البنية.^{٥٣}

بمعنى أن القيمة المهيمنة هي التي تحدد الأجناس الأدبية، و"تكسب الأثر نوعية. فالخاصية النوعية للغة الشعرية هي، بدهة، خطاطتها العروضية. أي: شكلها كشعر. إن هذا القول يمكن أن يظهر كتحويل حاصل: فالشعر هو شعر، ومع ذلك فيجب للحقيقة التالية ألا تغيب عن بالنا: وهي أن عنصرا لسانيا نوعيا يهيمن على الأثر في مجموعه (كليته)؛ إنه يعمل بشكل قسري، لا رادّ له، ممارسا بصورة مباشرة تأثيره على العناصر الأخرى. لكن الشعر بدوره ليس مفهوما بسيطا، وليس وحدة غير منقسمة؛ بل هو، في ذاته، نظام من القيم، وكل نظام قيم فهو يتوفر على سلمية خاصة لقيمه العليا والدنيا، وبين هذه القيم قيمة رئيسية، هي المهيمنة، بدورها (في إطار حقبة أدبية معينة، واتجاه فني معين) لا يمكن للشعر أن يفهم أو يحاكم باعتباره شعرا.^{٥٤}

والمقصود بهذا أن الشعر قد يتحدد بالوزن، أو بالصورة، أو بالنبر، أو بالتوازي، أو بالتكرار أو بخاصية بنيوية ما... وتختلف هذه القيم المهيمنة من حقبة إلى أخرى. و"إنه من الممكن بحث وجود قيمة مهيمنة ليس فقط في الأثر الأدبي لفنان مفرد، ولا في الأصل الشعري أو في مجموع أصول مدرسة شعرية، ولكن، أيضا، في فن حقبة معينة، باعتبارها كلا واحدا.^{٥٥}

وللتمثيل، فقد كانت الفنون البصرية، في عصر النهضة، هي المهيمنة. في حين كانت الموسيقى هي المهيمنة في العصر الرومانسي. أما الفن اللفظي، فقد كان مهيمنا في فترة الجمالية الواقعية.^{٥٦}

ومن باب التوضيح أكثر، فإن نصا ما قد تغلب عليه وظيفة معينة دون أخرى، وقد نعين هذه الوظائف مختلطة بنسب متفاوتة في رسالة واحدة، حيث تكون الوظيفة الواحدة منها غالبية على الوظائف الأخرى حسب نمط الاتصال. ومن هنا، تهيمن الوظيفة الجمالية الشعرية على الشعر الغنائي. في حين، تهيمن

^{٥٣} - رومان جاكسون: (القيمة المهيمنة)، نظرية المنهج الشكلي، ص: ٨١.

^{٥٤} - رومان جاكسون: (القيمة المهيمنة)، ص: ٨١.

^{٥٥} - رومان جاكسون: نفسه، ص: ٨٢.

^{٥٦} - رومان جاكسون: نفسه، ص: ٨٢-٨٣.

الوظيفة التأثيرية على الخطبة، وتهمين الوظيفة المبتالغوية على النقد الأدبي، وتغلب الوظيفة المرجعية على النصوص التاريخية، وتهمين الوظيفة الانفعالية على النصوص الشعرية الرومانسية، وتغلب الوظيفة الحفظية على المكالمات الهاتفية.

وعليه، فقد كانت "للأبحاث حول القيمة المهيمنة نتائج مهمة فيما يتعلق بالمفهوم الشكلي للتطور الأدبي. ففي تطور شكل إنشائي، لا يتعلق الأمر كلياً بزوال بعض العناصر وانبعاث عناصر أخرى، بقدر ما يتعلق بانزلاق في العلاقات المتبادلة بين مختلف عناصر النظام، بعبارة أخرى: بتبدل في المهيمنة. إن العناصر التي كانت في الأصل ثانوية، في إطار مجموع معين من القواعد الإنشائية العامة، أو بالأحرى الخاصة في مجموع القواعد الصالحة لنوع إنشائي معين، تغدو، على العكس، أساسية وفي المقام الأول. وخلافاً لذلك، فالعناصر التي كانت، في الأصل، مهيمنة لا تعود لها سوى أهمية صغرى؛ فتغدو اختيارية.^{٥٧}

وعلى العموم، تبقى القيمة المهيمنة معياراً شكلياً جوهرياً للتمييز بين الأجناس والأنواع الأدبية، ويستخدم أيضاً للتفريق بين الأنساق الشكلية الأدبية، ويستعمل كذلك لتفريد النصوص وتمييزها عن بعضها البعض.

وخلاصة القول، يتبين لنا، مما سبق قوله، أن رومان جاكبسون يعد من أهم الشكلايين الروس الذين خاضوا في الشعرية انطلاقاً من مقارنة بنوية لسانية. ويعتبر أيضاً من مؤسسي نظرية الأدب على أسس علمية موضوعية، بالاسترشاد باللسانيات، والاستفادة من نظرياتها تصوراً وتطبيقاً.

وكذلك، يكفيه فخراً أنه من المؤسسين الفعليين للشعرية/ الإنشائية، ومن اللسانيين الأوائل الذين أرسوا دعائم النحو الكلي، خاصة في مجال الفونولوجيا. وهو أيضاً صاحب نظرية السمات المميزة في دراسة

^{٥٧} - رومان جاكبسون: نفسه، ص: ٨٤-٨٥.

الفونيمات. ولا ننسى جهوده الجبارة كذلك في مجال الأفازيا⁵⁸، ودراسة الاستعارة والكناية، وتصنيف الأجناس والأنواع الأدبية وفق القيمة المهيمنة.

وأهم ما يمتاز به رومان جاكبسون أنه قد أرسى لبنات علم التواصل وفق الأنظمة اللسانية، على أساس أن اللغة الإنسانية لها وظيفة أساسية تتمثل في التواصل. ومن ثم، فإنها تستند إلى ستة عناصر، وست وظائف أساسية تابعة لها.

⁵⁸ -R. Jakobson : (Deux aspects du langage et deux types d'aphasie), in R. Jakobson, Essais de linguistique générale, t. I, op.cit.

الفصل الرابع:

التواصل التربوي اللفظي وغير اللفظي

المبحث الأول: التواصل اللفظي

تستند العملية الديدانكتيكية الناجحة، داخل الفصل الدراسي، إلى تفعيل الحوار التربوي الهادف والبناء، وتنشيط الدرس بصياغة أسئلة ووضعيات متدرجة من البساطة نحو الصعوبة، بغية التثبيت من مدى تحقق الكفايات المسطرة، وتنفيذ الأهداف المرسومة من قبل المدرس والمنهاج المدرسي.

وترتبط عملية التواصل، داخل الفصل الدراسي المغلق، بين مرسل وهو المدرس، ومتلق وهو التلميذ المتعلم؛ فيقوم المدرس بتقديم المادة الدراسية وفق أهداف وكفايات محددة بدقة، وهذه الأهداف والكفايات قد تكون عامة أو نوعية أو خاصة أو إجرائية. ويقسم المدرس المادة الدراسية التي تعتبر في النموذج التواصلية عبارة عن رسالة تربوية إلى مراحل ووحدات دراسية وأنشطة تربوية، مع احترام وحدة التمهيدي، ووحدة العرض، ووحدة الخاتمة، ويكون تقطيع المادة في انسجام كلي مع التقويم القبلي، والتقويم التكويني، والتقويم التشخيصي.

ويوجه المدرس المادة الدراسية التي تكون جزءا من المقرر الدراسي أو المنهاج التعليمي إلى متعلم قد يكون صفحة بيضاء أو وارثا لمجموعة من القدرات الفطرية الذهنية التي تؤهله للتعلم والاكتساب، باستخدام مجموعة من الوسائل الديدانكتيكية المادية والمعنوية، مثل: توظيف الكتب، والوثائق، والوسائط السمعية البصرية، والشروح المستفيضة، والمذكرات الوزارية، إلخ.

ولا ينجح الدرس الديدانكتيكي إلا إذا أخضع للتشخيص والتقويم والتغذية الراجعة (Feed Back) من أجل دعم العملية التعليمية- التعلمية، وتصحيح الأخطاء المنهجية، بملء الفراغات التي أثرت سلبا في خطوات العملية الدراسية.

ومن ثم، يستهدف التواصل البيداغوجي الديدانكتيكي فهم آليات نقل الخبرات والتعلمات والقيم والأنشطة الحركية من المدرس إلى المتعلم، والعمل على إدراكها وتفسيرها، وضبط طرائق التفاعل والتبادل والحوار. ويتخذ التواصل البيداغوجي أنواعا ثلاثة:

المطلب الأول: التواصل المعرفي

يهدف التواصل المعرفي إلى نقل المعلومات واستقبالها، وهو تواصل يركز على الجوانب المعرفية ومراقبتها. أو بتعبير آخر، إنه يركز على الإنتاجية والمردودية. ويهدف هذا التواصل إلى نقل الخبرات والتجارب إلى المتلقي وتعليمه طرائق التركيب والتطبيق والفهم والتحليل والتقويم بصفة عامة. إنه يهدف إلى تزويد المتلقي بالمعرفة والمعلومات الهادفة. ومن ثم، يقوم هذا التواصل على تبادل الآراء، ونقل المعارف وتجارب السلف إلى الخلف.

ويساهم السلوك اللفظي وغير اللفظي في التواصل المعرفي إذا تم احترام شروط السيكولوجيا التي تحيط بالمتلقي أو يعيشها. فالرفع من الإنتاجية المعرفية لا يتم إلا بسلوكات لفظية ديمقراطية، تعتمد على روح المشاركة، والطريقة التربوية اللاتوجيهية، وتمثل مبدأ التسيير الذاتي، والأخذ بالتفاعل الديناميكي البناء؛ وكذلك عبر سلوكات لفظية وغير لفظية، مثل: حركات التنظيم، والحركات الديدانتيكية، وحركات التقويم والتمجيد. وهكذا، لا يمكن عزل التواصل المعرفي عن التواصل الوجداني إلا من باب المنهجية ليس إلا.

وثمة صناعات بيداغوجية في مجال التواصل المعرفي كصناعة بلوم (Bloom) التي تتمثل في المراقي التالية: المعرفة، والفهم، والتطبيق، والتحليل، والتركيب، والتقويم.



الصفة	سلوك ذو علاقة
المعرفة	يعرّف، يصف، يميز، يدرج، يطابق، يحفظ، يشير لـ، يستدعي، يختار، يُصرّح.
الفهم	يجمع، يغيّر، يشرح، يعمّم، يضرب أمثلة، يستنتج، يفسّر، يعيد الصياغة، يتنبأ، يراجع، يلخص، يترجم.
التطبيق	يطبق، يتخذ، يجمع، يبني، يوضح، يكتشف، يشرح، يجري مقابلة، يعالج، يربط بـ يظهر، يحلّ، يستخدم.
التحليل	يحلل، يقارن، يناقض، يخطط، يميّز، يشرح، يُعرّف، يوضّح - يستنتج، يوجز، يشير، يختار، يفصل، يصنف، يقسم.
التركيب	يمزج، يبني، يغيّر، يجمع، يضع، يؤلف، يتصور، يبتكر، يصمّم، يُنتج، يفترض، يخطط يتنبأ، يؤلد، يعيد ترتيب، ينتج، يعدّل، يخبر، يسكت.
التقييم	يقبل، يقدّر، يقيم، يحكم، يكافئ، يختار، يستنتج، ينقد، يدافع، يقيم، يدرّج، يحكم، يفضل، ينصح بـ، يحكم، يرفض، يختار، يدعم.

المطلب الثاني: التواصل الوجداني

إن من بين أهم وظائف التواصل التأثير في المتلقي سلبا أو إيجابا. " فهناك تواصل كلما أمكن لجهاز معين وبالأخص جهاز حي أن يؤثر في جهاز آخر بتغيير فعله انطلاقا من تبليغ إرسالية"⁵⁹.

وبهذا المفهوم، يقصد بالتواصل كل التأثيرات التي يمارسها نظام على آخر، مثل: تلك العلاقة التي تنبني على تطبيق أوامر وتعليمات أو ترديد إحداث تغيير في سلوك الآخر. وتعتبر السلوكية من أهم التيارات السيكولوجانية التي ركزت على الوظيفة التأثيرية؛ لأن التواصل - حسب المنظور السلوكي - يركز على مفهومي المثير والاستجابة. لذلك، يترك السلوك اللفظي أو غير اللفظي في وجدان المتلقي تأثيرات شعورية، تكون لها انعكاسات إيجابية، مثل: التعاون، والتماثل، والاندماج؛ وانعكاسات سلبية مثل: التعارض، والصراع، والتنافس. ومن ثم، فالعمليات الإيجابية " أقوى أثرا وأبقى من العمليات السلبية، وإلا لما بقيت المجتمعات الإنسانية أو تقدمت نحو الرقي والنهوض، فالصراع والعمليات السالبة عموما مجالها محدود،

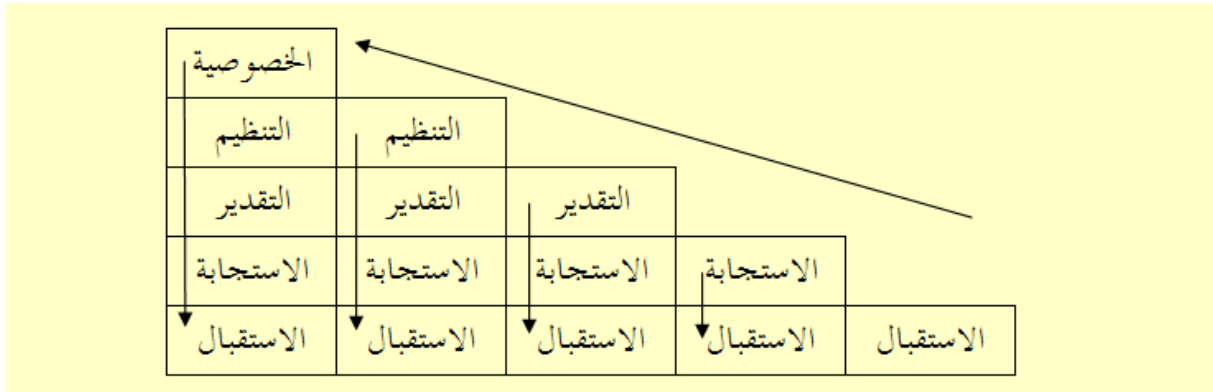
⁵⁹ - Gilles Amado/ André Guillet: la dynamique des communications des groupes.ED. Armand Colin.P:3.

وكذلك أسلوبها؛ ذلك لأن الحياة تضطر الأفراد بمختلف مصالحهم أو مواقفهم إلى أن يوافقوا أنفسهم بالآخرين، ويتخلصوا من الصراع إلى الاندماج أو التكيف مع البيئة^{٦٠}.

إذاً، يقصد بالتواصل الوجداني، في مجال البيداغوجيا، اكتساب الميول والاتجاهات والقيم، وتقدير جهود الآخرين، من خلال تفاعل المتعلم مع المادة المدروسة، واكتسابه الخبرات بأنواعها المباشرة وغير المباشرة.

ولقد خصص للمجال الوجداني صنفات بيداغوجية، ومن بين المهتمين بهذا المجال **كراثول (Krathwol)** الذي خصص صنفات تتكون من خمسة مستويات ذات صلة وثيقة بالمواقف والقيم والاهتمامات والانفعالات والأحاسيس والتوافق والمعتقدات والاتجاهات، فكرية كانت أم خلقية. وهذه المستويات هي:

- ① التقبل.
- ② الاستجابة.
- ③ الحكم القيمي.
- ④ التنظيم.
- ⑤ التمييز بواسطة قيمة أو بواسطة منظومة من القيم.



^{٦٠} - جميلة العسال: دروس في التربية وعلم النفس، المركز التربوي الجهوي بفاس، مطبوع جامعي، السنة الدراسية: ١٩٨٠ -

المطلب الثالث: الجانب الحسي - الحركي

يمكن الحديث عن التواصل الحركي والحسي الذي يتناول ماهو غير معرفي ووجداني. ويظهر هذا التواصل جليا في مجالات تستدعي الحركة، مثل: السبرينطيقا، والآلية، والمسرح الميمي، والرياضة البدنية... ويتضمن هذا التواصل، في المجال التربوي، "مجموعة متسلسلة من الأهداف تعمل على تنمية المهارات الحركية، واستعمال العضلات والحركات الجسمية"^{٦١}.

ومن أهم صناعات هذا التواصل الحركي نجد صناعة هارو (Harrow) التي وضعها صاحبها سنة ١٩٧٢ م. وتتكون هذه الصناعة من ستة مراح أساسية هي:

- ① الحركات الارتكاسية.
 - ② الحركات الطبيعية الأساسية.
 - ③ الاستعدادات الإدراكية.
 - ④ الصفات البدنية.
 - ⑤ المهارات الحركية لليد.
 - ⑥ التواصل غير اللفظي.
- وتوجد صناعة أخرى لسيمبسون (Simpson) تتكون من: الإدراك الحسي، والتهيؤ، والاستجابة الموجهة، والآلية، والاستجابة المعقدة، والتكيف، والابتكار.

^{٦١} - مادي لحسن: الأهداف والتقييم في التربية، شركة بابل للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠م،

تصنيف الأهداف السلوكية



المجال النفسي حركي (سيمپسون)				
المستوى	التصنيف أو "المستوى"	وصف السلوك	أمثلة عن نشاط سيتم تدريبه، أو عرض ودليل سيتم قياسه	الكلمات الأساسية (الأفعال التي تصف النشاط الذي سيدير أو الذي سيقاس عند كل مستوى على حدة)
1	الإدراك الحسي (Perception)	وعى	استخدام و/أو اختيار الحواس لتتربص المعلومات لإرشاد الحركة	يدرك، يميز، يلاحظ، يلمس، يسمع، يشعر، إلخ
2	الإعداد (Set)	جاهزية	التحضير الفكري الجسدي أو العاطفي قبل إجراء تجربة أو إكمال مهمة	يرتب، يحضر، يجهز
3	الاستجابة الموجهة (Guided Response)	محاولة	قد أو اتبع التعليمات، تجربة وخطأ	يقلد، ينسخ، يتبع، يحاول
4	الآلية (التقنية) (Mechanism)	براعة أساسية	استجب وبشكل واف للمثير لإجراء الفعل	يصنع، ينجز، يشكل، يكمل
5	الاستجابة العلنية المعقدة (Complex Overt Response)	براعة الخبير	نقد عملية معقدة وبخبرة	تشارك، أصلح، أبرز
6	التكيف (Adaptation)	براعة متكيفة	غير في الاستجابة بحيث تلي التحديات المتنوعة	عدل، ادمج، حل
7	الإنشاء (Origination)	براعة خلاقة	طور ونفذ الاستجابات و النشاطات المدمجة حديثاً	صمم، صنع، عدل، أعد تصميم، حل - مشكلة

وعليه، يبنى المنهاج الدراسي على جميع مجموعة من الوحدات الدلالية والخبرات التعليمية، في شكل معارف ذهنية وعقلية، وميول وجدانية، وتدابير حركية، وأنشطة تطبيقية، وأسئلة تكوينية في شكل وضعيات كفاية، ينبغي أن يترجمها المدرس ميدانيا داخل قاعة الدرس، بواسطة حوارات ترد في شكل أسئلة وأجوبة،

أوفي شكل تفاعلات لفظية كلامية مندمجة في وحدات صوتية ومقطعية وكلمات وجمل تتسم بالاتساق والانسجام الدلالي والتركيب.

وقد يكون التواصل في المدرسة التقليدية تواصلا خطيا أحادي الجانب، يتجه من المدرس نحو المتلقي، على أساس أن المدرس يملك المعلومات الجاهزة، وأن التلميذ صفحة بيضاء، يجب أن تنقش ذاكرته بالمعلومات التي يزود بها المدرس التلميذ. وهنا، يكون التلميذ مستمعا سلبيا لا يحق له الحوار والنقاش والنقد والتفاعل مع المدرس، بل عليه أن يحفظ ويجتر المعلومات المخزنة في الذاكرة. وكل متعلم أحل بواجبه يتعرض للعقاب والرسوب. ومن ثم، يبدو هذا المدرس الذي يستخدم هذه الطريقة التقليدية مدرسا مستبدًا، يحتكر سلطة الكلام والعقاب والتأنيب، وقتل كل فرص الحوار والتفاعل التشاركي.



وفي المقابل، يمكن الحديث عن التواصل الفعال الذي يكون إما تواصلا عموديا، وإما تواصلا أفقيا، وإما تواصلا دائريا، وإما تواصلا شبه دائري. ويتكئ هذا التواصل الديمقراطي على الحوار بين التلاميذ فيما بينهم في إطار بيداغوجيا اللاتوجيهية، أو البيداغوجيا المؤسسية، أو البيداغوجيا الفارقية، أو بيداغوجيا الكفايات والمجزوءات، أو البيداغوجيا الإبداعية، أو بيداغوجيا الملكات...

ويتخلى المدرس، في هذا التواصل الفعال، عن سلطة التلقين والتعليم واحتكار الكلام ليأخذ صفة المرشد والموجه، إذ يعتمد التلاميذ على أنفسهم في إعداد الدروس في إطار التعلم الذاتي، من أجل إيجاد الحلول الناجعة للإجابة عن كل الوضعيات السياقية التي يواجهونها في الواقع أو في سوق الشغل.

ويقوم التواصل، في الطرائق الفعالة، على التعلم الذاتي، واللعب، والحرية، وتعلم الحياة عبر الحياة، فضلا عن مبدأ الانسجام، ومبدأ التبادل المستمر، ومبدأ الإدراك الشامل^{٦٢}. ومن هنا، فالتواصل البيداغوجي الفعال هو الذي يتسم بالحرية والتعبير والتبادل والفعالية^{٦٣}.

ومن جهة أخرى، لن يكون التواصل اللفظي فعالا وناجحا، على مستوى الكلام والكتابة، إلا باعتماد أسلوب واضح ومتين ومتسق، واستعمال أسلوب حي مشوق ومثير، يستفز المتعلم بشكل مثير، ويحركه ذهنيا ووجدانيا وحركيا، من أجل الإجابة عن الأسئلة المطروحة داخل الفصل الدراسي. علاوة على احترام البناء المنطقي في التواصل، بتقسيم المادة الدراسية بشكل متسلسل ومترايط زمنيا وسببيا، مع اختيار القناة المناسبة لتوصيل المعارف والقيم، وتنمية الأفكار عن طريق احترام مجموعة من المتواليات والخطوات المتعاقبة والمتسلسلة، في شكل وحدات وأنشطة متراكبة متسقة ومنسجمة.

وينبغي أن يتفادى التواصل اللفظي كل الصعوبات والعوائق الباتولوجية (المرضية) التي تحول دون تحقيق تواصل فعال، قد تؤثر سلبا في عملية التراسل بين المدرس والتلميذ. ونذكر من هذه الصعوبات: الضجيج، والتشويش، والتمركز على الذات، وعدم الانفتاح على الغير.

ناهيك عن الصعوبات الدلالية الناتجة عن الرسالة المفعمة بالانزياح، والدلالات التضمنية التي تحمل إichاءات شعرية متعددة، وتشبيء المتعلم بتحويله إلى كائن سلبي مستلب، وإغفال تمثلات التلاميذ؛ مما يجعل التواصل داخل الفصل مستحيلا. دون أن ننسى عوائق أخرى كانهصال التلميذ عن عالمه الداخلي والخارجي، وارتكان المدرس إلى الوثوقية والاستغلال، حيث يلتجئ المعلم إلى تقديم معلومات خاطئة للمتمدرس على أنها صحيحة، يستغل بواسطتها سذاجة التلاميذ وعفويتهم البريئة باعتباره شخصا لا يخطئ. ناهيك عن مجموعة من الأخطاء التي يرتكبها المدرس، مثل: اللحن، والتلعثم، وارتكاب الأخطاء

^{٦٢} - العربي أسليماني ورشيد الخديمي: قضايا تربوية، ص: ٣٦-٣٧.

^{٦٣} - Bernard Sannanès: Les fondements d'une communication efficace, Dunod, 2002, pp:8-9.

النحوية والصرفية، والمساهمة في خلق ضعف الثقة في النفس لدى المتدربين؛ بسبب تسلطه المتعجرف، واستبداده داخل الفصل، ومنعه للحوار والمناقشات النقدية البناءة^{٦٤}.

وإذا كان التواصل البيداغوجي يعتمد على ثلاثة مرتكزات: المدرس، والمقرر، والمتعلم، فلا ينبغي للمدرس أن يركز على نفسه كثيرا على حساب المقرر والتلميذ، أو يركز على المقرر على حساب التلميذ والمدرس، أو يركز على التلميذ مع التضحية بالمقرر، وبوجوده الهام داخل العملية اليداكتيكية.

ومن الذين اهتموا كثيرا بالتواصل التربوي اللفظي نستحضر كلا من: بازل برنشتاين، ولابوف، وبيير بورديو، وپاسرون، وصوفي مواران، وأوليفي روبول، وكوكولا، وباير، وطيط...

وعلى العموم، يستدعي التواصل التربوي اللفظي "قيام علاقة ثنائية أو جماعية. والتعلم الناجح هو المبني على التفاعل والتبادل. ولذلك، لا يمكن أن نتصور عملية تعليمية - تعلمية ناجحة ليس فيها تواصل وتفاعل. كما يمكن القول بأن التواصل التربوي داخل فصولنا الدراسية، يكون إما نازلا خطيا أحادي الاتجاه، يقوم على نقل المعلومات والمعارف من الأستاذ إلى التلميذ؛ الشيء الذي يتنافى مع التفاعل والتشارك والحوار؛ وإما تشاركيا يقوم على حوارات أفقية وعمودية بين الأستاذ والتلميذ، وبين التلميذ أنفسهم. وقد تأثر أصحاب التواصل الأحادي، بمنظري الإعلام وبعض النماذج اليداكتيكية التي ترى أن عقل التلميذ عبارة عن صفحة بيضاء تنطبع بالإحساس والتجربة.... أما أصحاب التواصل التشاركي، فإنهم يستندون إلى نظرية العقل الماقبلي؛ بمعنى أن التلميذ يتوفر على أفكار قبلية سابقة على الإحساس والتجربة"^{٦٥}.

وعلى أي حال، لا بد أن تستند البيداغوجيا الإبداعية إلى الحوار المتكافئ، والتواصل المتعدد الاتجاهات، من أجل خلق روح التعاون والشراكة والتشاركية، والاندماج داخل فريق تربوي، وتعويد التلميذ على تقبل الآخر في إطار فلسفة التعايش والتسامح. ولا يمكن أن نخلق مجتمعا سويا يؤمن بالتعارف والانفتاح وضرورة التواصل إلا إذا طبقنا أسلوب الحوار في مدارسنا التربوية، وفصولنا الدراسية.

^{٦٤} - العربي أسليماني ورشيد الخديمي: نفسه، ص: ٣٨-٤٠.

^{٦٥} - العربي أسليماني ورشيد الخديمي: نفسه، ص: ٤٤-٤٥.

المبحث الثاني: التواصل غير اللفظي

لقد حظي السلوك اللفظي باهتمام الباحثين العرب بصفة عامة، والمغاربة بصفة خاصة، في المجال التربوي والديداكتيكي، وأهملوا السلوكيات غير اللفظية. وأن الألوان لإعادة النظر في السلوكات غير اللفظية في علوم التربية لفهم التواصل في إطار العملية الديداكتيكية من جميع جوانبها، ولاسيما الجانب السيكيوساجتماعي. أي: الآثار المعرفية والوجدانية التي تحدثهما السلوكيات غير اللفظية لدى التلاميذ بالمدرسة العربية بصفة عامة، والمدرسة المغربية بصفة خاصة.

لذا على المؤطرين والمفتشين والأساتذة أن يعيروا انتباههم للحركات الوظيفية والسلوكيات غير اللفظية؛ نظرا لأهميتها التربوية والتكميلية والتوضيحية للسلوكيات اللفظية. لأن الحركات المعبرة لم تعد قاصرة على تعويض اللغة الطبيعية فقط، بل هي تكمل مهمتها وتوضحها عن طريق التشخيص والتجسيد. وقد تستقل بنفسها في كثير من الأحيان، ولكن من الأفضل ينبغي أن ينظر إلى هذه السلوكيات غير اللفظية بمنظار بنيوي كلي. أي: على أساس أنه نسق متفاعل مع جميع السلوكيات الأخرى.

وعليه، يستخدم كثير من المدرسين سلوكيات غير لفظية بطريقة قصدية أو غير قصدية، دون إعارة أي اعتبار لها، على الرغم من أهميتها ووظيفتها الكبرى في أداء الخطاب التعليمي.

هذا، وللسلوكيات غير اللفظية تأثيرات سلبية وإيجابية على مستوى التواصل المعرفي والوجداني. ولمعرفة هذه السلوكيات، لابد للمدرس من الاطلاع على أحدث النظريات في علم التواصل، واللسانيات، والسيميوطيقا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع؛ وكذلك ضرورة الاستمرار في التكوين وإعادة التكوين، مع تجريب الآليات الحديثة في الملاحظة ومشاهدة السلوكيات غير اللفظية، كاستخدامه للفيديو، والحاسوب، والماكينوتوسكوب، إلخ...

ويلاحظ أن المدرس يوظف في قسمه أنواعا من الحركات، وكل حركة لها دلالتها، ولها تأثيرها في عملية التواصل، وكذلك التأثير في المتلقي معرفيا ووجدانيا وحركيا. ومن بين هذه الحركات نستحضر: الحركات التعبيرية، والحركات الإشارية، والحركات العلائقية المتمثلة في حركات التقويم، وحركات التلويح باليدين، واستخدام خطاب العيون في التأديب أو التعبير أو التشخيص. علاوة على الحركات التي تخص تنظيم

القسم، دون أن نغفل الحركات التي تتعلق بتنقلات المدرس داخل الفصل الدراسي، وكذلك الحركات الجانبية الزائدة وغير الوظيفية، كالنظر إلى ثيابه، ولمس لحيته، واللعب بشواربه.

ويبدو أن المدرس الناجح هو الذي يلقي درسه مستعينا بالسلوكيات اللفظية وغير اللفظية بشكل متكامل، دون فصلها عن بعضها البعض. ويشترط أن تكون هذه السلوكيات وظيفية جدا ليكون لها تأثير فعال وإيجابي في المتعلمين، إن على المستوى المعرفي (الإنتاجية والمردودية)، وإن على المستوى الوجداني (تمثل السلوكيات الإيجابية: كالسلوك الهادئ، والإحساس بالرضا والارتياح أو بالفرح والسرور).

وعلى هذا الأساس، لا بد أن يكون للسلوكيات غير اللفظية دور معتبر جدا في المجال التربوي، وخاصة داخل الفصل الدراسي. وينبغي للمتخصصين في علوم التربية أن يولوها أهمية كبرى للأخذ بها، والعمل؛ نظرا لجوانبها المهمة، ولفعاليتها الكبيرة في تحقيق الأهداف الإجرائية المسطرة، وتفعيل الكفايات البيداغوجية المرسومة في بداية السنة الدراسية، أو في بداية كل حصة أو مجزوءة دراسية. وعليهم أيضا أن يخصصوا لهذا التواصل المعرفي والوجداني المؤدى بواسطة السلوك غير اللفظي حلقات وأبحاثا وندوات جادة لمدرسة هذا الموضوع، والخروج بتوصيات وحلول موضوعية قد تخدم المدرس والتلميذ على حد سواء.

وبناء على ماسبق، فإن البحث في التواصل غير اللفظي يثير الانتباه -على حد قول هنري ديوزيد (Henri Dieuzeid) - إلى الأثر الذي تمارسه الوسائل السمعية البصرية في مجال التأثير، والتي لا تسعى فقط إلى تطوير الاستقبالية لدى التلاميذ، بل تسعى أيضا إلى إيجاد وضعيات إدراكية جديدة⁶⁶.

ومن المعلوم أن المرء يتعلم:

- ١٠% بواسطة الذوق؛
- ٣,٥% بواسطة الشم؛
- ١,٥% بواسطة اللمس؛
- ١١% بواسطة السمع؛
- ٨٣% بواسطة البصر.

⁶⁶ - Suzette Ghodsi-Jose: La 3 dimension éducative, ed. Labor.P:60.

ومن جهة أخرى، فإنه يتذكر:

- ١٠% مما يقرؤه؛
- ٢٠% مما يسمعه؛
- ٣٠% مما يراه؛
- ٥٠% مما يراه ويسمعه؛
- ٢٠% مما يقوله وهو يفعل شيئا^{٦٧}.

وبناء على هذه المعطيات، فكل النسب المئوية تفرض على الباحث والمهتم إعادة النظر في العملية الديدانكتيكية بمدارسنا العربية بصفة عامة، والمدارس المغربية بصفة خاصة، بعد تطور علوم التربية، واستعانتها بمناهج العلوم الأخرى. ناهيك عن تطور اللسانيات والسيمياثيات اللتين اهتمتا بالعلامات البصرية والحركية، وبالتواصل الذي يستند إلى الشفرة الحركية الجسدية كانت أم بصرية، وهذا ما يحتم علينا أن ندرج التواصل غير اللفظي في شبكاتنا لمراقبة دروس التأطير والتكوين، وكذا الاستعانة به لتكملة نجاعة التواصل اللفظي؛ لإغناء العملية التربوية داخل المؤسسات التعليمية، وإثارة انتباه الأساتذة والمشرفين على التسيير التربوي ومراقبته إلى أهمية السلوكيات غير اللفظية في المؤسسات التربوية التعليمية، وأثرها وجدانيا ومعرفيا في نجاح العملية الديدانكتيكية، بعدما أن أشبع السلوك اللفظي درسا وتمحيصا من قبل كثير من الباحثين، أمثال: فلاندرس (Flanders)، وليبيت (Lippit)، ووايت (White)، إلخ...

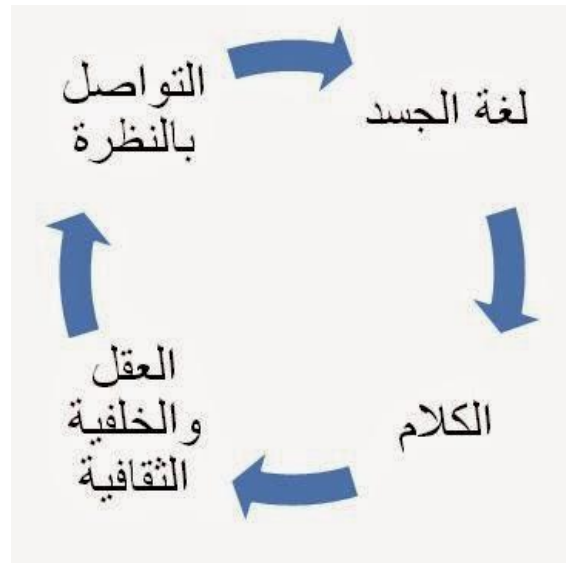
ولقد أجريت عدة تجارب في الغرب من أجل معرفة آثار التواصل غير اللفظي، والأدوار التي يقوم بها، والوسائل التي يمكن أن تقننه، وكانت هذه التجارب تجري خارج الميدان البيداغوجي. أي: في البيولوجيا، والإثنولوجيا، وعلم النفس، وعلم الاجتماع. وأخيرا، تم نقله إلى البيداغوجيا من أجل دراسة التفاعلات الإنسانية داخل القسم. ومن أهم الباحثين الذين خصصوا للتواصل غير اللفظي مكانة مهمة في أبحاثهم نذكر: جيلبير دولاندشير (Gilbert de Landsheere) وأندري ديلشامبر (André Del

⁶⁷ - IBID.P:60.

Chambre) المدرسين بجامعة لياج ببلجيكا، في كتابهما القيم (السلوكات غير اللفظية للمدرس / Les comportements non verbaux de l'enseignant)⁶⁸.

هذا، ويتجلى التواصل غير اللفظي، داخل الفصل الدراسي، في توظيف الحركات المعبرة، وتحويل القسم إلى محترف مسرحي، يشخص فيه الأستاذ المادة الدراسية، ويشاركه في ذلك التلميذ من أجل إثراء العملية الديدانكتيكية.

ويلاحظ أن المدرس، داخل الفصل الدراسي، يزوج بين التواصل اللفظي والتواصل غير اللفظي، بتشغيل حركات تعبيرية، وحركات إيقاعية، وحركات علائقية (حركات التنظيم، وحركات التقويم، وحركات الجسم العامة)، والحركات الزائدة، والحركات الخارجية (التنقلات)، والحركات الديدانكتيكية، ويستعين المدرس أيضا بالميم والباننوميم في تشخيص المادة، وتمثيل المواقف الدرامية.



وبالإضافة إلى الحركات، يستغل المدرس المكان والزمان في عملية التدريس. أي: يشغل التموضعية (Proxémic) في كل إمكاناتها العلائقية، ويتحكم في المسافة التواصلية بينه وبين التلميذ قربا وبعدا. وقد تكون هذه المسافة التواصلية مسافة ود وحب وتقريب أو مسافة نفور وإقصاء وتغريب. علاوة على

⁶⁸ - Gilbert de Landsheere, André Del chambre: **les comportements non verbaux de l'enseignant**. 2. Fernand Nathan, ed. Labor. Bruxelles, 1974.

ذلك، ينبغي للمدرس أن يستغل جيدا حركات النظر والجسد أو ما يسمى باللغة الكينيسية لأداء درسه أحسن أداء تربوي وديداكتيكي، بالجمع بين التلفظ اللغوي والتشخيص الكوريجرافي الجسدي.

ويسمى هذا التواصل المكاني بالتقريبية (Proxémique)، وقد نظر له هول (E.T.Hall)، في كتابه (الكلام الصامت / The Silent Language)، حيث قدم الكاتب فيه المسافات الدلالية الثمانية بين متحدثين أمريكيين^{٦٩}:

١- قريب جدا (من ٥ إلى ٢٠ سنتم)	همس خفيف	سري جدا
٢- قريب (من ٢٠ إلى ٣٠ سنتم)	همس مسموع	حميمي
٣- مجاور (من ٣٠ إلى ٥٠ سنتم)	صوت منخفض في الداخل/ صوت مرتفع في الخارج	حميمي
٤- حيادي (من ٥٠ إلى ٩٠ سنتم)	صوت منخفض، حجم ضعيف	موضوع شخصي
٥- حيادي (من ١,٣٠ إلى ١,٥٠ م)	صوت مرتفع	موضوع غير شخصي
٦- مسافة عمومية (من ١,٦٠ إلى ٢,٤٠ م)	صوت مرتفع مفخم قليلا	أخبار عمومية موجهة لتكون مسموعة من أشخاص
٧- عبر الغرفة (من ٢,٤٠ إلى ٣ م)	صوت عال	متكلما إلى مجموعة
٨- دون حدود (من ٦ إلى ٣٠ م)	صوت عال	تحيات من بعيد، رحيل، الخ

^{٦٩} - انظر: بيير جيرو: علم الإشارة / السيميولوجيا، ترجمة: د. منذر عياشي، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، طبعة سنة ١٩٩٢ م، ص: ١٤٦-١٤٧.

هنا، نلاحظ أن المسافة المكانية تتحدد انطلاقاً من خاصية السمع. ومن ثم، فالمسافة اصطلاحية واعتباطية، لأنها تتغير من شعب إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى. " فالأنكلوسكسونيون يحافظون على مسافة معينة بين المتحدثين. وعلى العكس من ذلك، يميل اللاتينيون إلى التقليل منها. وينتج عن هذا أن الأنكلوسكسون يشعرون بضيق وانزعاج من اللاتينيين، بينما يراهم هؤلاء باردين ومتحفظين. وهذا ما ذكره هال: "إن المسافة في أمريكا اللاتينية أصغر منها في الولايات المتحدة. وإن الناس، في الواقع، لا يستطيعون الكلام براحة إلا عبر مسافة قريبة جداً، الشيء الذي يثير في أمريكا الشمالية مشاعر جنسية أو عدائية. والنتيجة أنهم كلما اقتربوا ابتعدنا. وبناء على هذا فإنهم يظنون أننا متعجرفون، وباردون، ومحافظون، وغير وديين. بينما نتهمهم نحن دائماً بأنهم ينفخون في وجوهنا، ويحاصروننا، ويرشون من لعابهم على وجوهنا أثناء حديثهم.

إن الأمريكيين الذين عاشوا بعضاً من الوقت في أمريكا اللاتينية دون أن يدركوا معنى هذه المسافات يستخدمون حيلة أخرى. إنهم يتحصنون خلف مكاتبهم، ويستعملون الكراسي والطاولات لكي يبقوا الأمريكي اللاتيني واقفاً على مسافة يعتبرونها مريحة.

والنتيجة، فإن الأمريكي اللاتيني يستطيع أن يذهب إلى حد يصعد فيه الحاجز ليصل إلى مسافة حيث يتحدث براحة".^{٧٠}

وإذا كان التواصل اللغوي اللفظي هو المهيمن داخل مؤسساتنا التعليمية، وخاصة في المناهج التربوية التقليدية التي تتمركز حول المدرس، باعتباره صاحب السلطة والمعرفة في الحقل الديداكتيكي، فقد أصبح للتواصل غير اللفظي أهمية كبرى في الطرائق التربوية الفعالة، وفي البيداغوجيا الإبداعية، بعد تطور العلوم اللسانية والسيمائية والنفسية والاجتماعية والإثنولوجية.

ومن هنا، صار الخطاب البيداغوجي المعاصر يهتم بالسلوكيات غير اللفظية لكونها ذات أهمية كبرى، لا يمكن الانتقاص من قيمتها في المسار التواصلية معرفياً ووجدانياً، وهي تساعد السلوكيات اللفظية على أداء أدوارها كاملة، وتوضيح إرسالياتها الشفوية، حيث تخدمها مباشرة، بتجسيدها وتفسيرها وتنظيمها والتركيز عليها.

^{٧٠} - انظر: بيير جيرو: علم الإشارة / السيمولوجيا، ص: ١٤٧-١٤٨.

لذا، فآثرها، في كثير من الأحيان، يساعد على فهم جيد في إطار العملية الديدانتيكية. ويختلف هذا الأثر حسب الخصائص المعرفية والوجدانية للأفراد. وفي كثير من الأحيان، نجد السلوكيات غير اللفظية دوالا مستقلة، وخصوصا أنها تمثل، بطريقة مباشرة أو عبر اصطلاح ثقافي، الأشكال والحركات والأفعال والخصائص والحالات.

هذا، وتنظم السلوكيات غير اللفظية، داخل الفصل الدراسي، كثيرا من الأوامر والممنوعات والنفي والرفض والحث والإغراء والاكتساب، وتعتبر أيضا عن الانفعالات والهيات.

وفي الأخير، ينبغي أن تكون السلوكيات غير اللفظية أفعالا بيداغوجية وظيفية، تخدم العملية الديدانتيكية بمدارسنا التربوية معرفيا ووجدانيا، مثل: حركات التنظيم، وحركات التحفيز، وحركات التجسيد، والحركات الديدانتيكية المصاحبة للشرح والتفسير.

الفصل الخامس:

النص الأدبي في ضوء المقاربة التواصلية

المبحث الأول: النص الأدبي إبلاغ تواصل

ترى المقاربة التواصلية أن النص الأدبي يركز على مجموعة من الوظائف، وأهمها الوظيفة التواصلية. وخير من يمثل هذا التيار التواصلية الذي يرى النص الأدبي إبلاغاً وتواصلًا، نذكر: رومان جاكسون الذي تحدث، في مقارنته التواصلية الوظيفية، عن ستة عناصر في عملية التواصل: المرسل ووظيفته انفعالية، والمرسل إليه ووظيفته تأثيرية، والرسالة ووظيفتها جمالية، والمرجع ووظيفته مرجعية، والقناة ووظيفتها حفاظية وتواصلية، واللغة ووظيفتها وصفية تأويلية وتفسيرية. وقد تأثر جاكسون، في هذه الخطاطة التواصلية، بأعمال فرديناند دوسوسير، وأعمال الفيلسوف المنطقي اللغوي جون أوسطين.

وهناك من يزيد الوظيفة السابعة للخطاب اللساني، وهي الوظيفة الأيقونية كما عند السيميائي ترنس هوكس، بعد ظهور كتابات جاك دريدا، وانبثاق السيميوطيقا التواصلية. كما يضيف عبد الله الغدامي الوظيفة الثقافية في إطار النقد الثقافي الذي يدافع عنه عربيا. أما هاليداي التداولي، فيركز على ثلاث وظائف للغة: الوظيفة التمثيلية (الإحالة على العالم الداخلي والخارجي للذات المتكلمة)؛ والوظيفة التعالقية (اتخاذ دور من الأدوار الاجتماعية بالنسبة للمخاطب كدور المخبر، ودور السائل، ودور الأمر)؛ والوظيفة النصية (تنظيم الخطاب حسب مقتضيات مقام إنجازه). وهذه الوظائف الثلاث مستقلة، على الرغم من كونها تصب كلها في وظيفة واحدة هي وظيفة التواصل.

وتأسيسا على ماسبق، يصنف فان ديك المعلومات إلى ثلاثة أقسام: معلومات عامة ترتبط بالعالم أو بأي عالم ممكن؛ والمعلومات الموقفية التي ترتبط بما يتضمنه الموقف الذي يتم فيه التواصل؛ والمعلومات السياقية المستقاة من الخطاب المتبادل سلفا بين الشخصين المتواصلين، " ويتم تغيير المعلومات التداولية إما بالنظر إلى العلاقة القائمة بين المتكلم والمخاطب (تواصل علاقي)، أو بالنظر في فحوى الخطاب ذاته. في هذه

الحالة الثانية، يكون القصد من الخطاب حمل المخاطب على القيام بفعل ما (تواصل توجيهي)، سواء أكان الفعل المطلوب عملاً (تواصل أمري)، أم قولاً (تواصل استفهامي)، كما يكون القصد منه الإخبار عن شيء (تواصل إخباري)، أو التعبير عن إحساس (تواصل تعبيري)، أو استشارة إحساس (تواصل استشاري).^{٧١}

هذا، ويذكر بوبر (Popper) أربع وظائف أساسية للغة الإنسانية هي: الوظيفة التعبيرية (تعبير الشخص عن حالته الداخلية)؛ والوظيفة الإشارية (تبليغ الشخص الآخرين بمعلومات عن حالته الداخلية)؛ والوظيفة الوصفية (وصف أشياء العالم الخارجي المحيط به)؛ والوظيفة الحجاجية (تقييم الحجج وتبريرها).^{٧٢}

وعليه، إذا أردنا - مثلاً - دراسة عنوان نص أو خطاب ما في ضوء تواصلية رومان جاكبسون، فالعنوان كما هو - معلوم - عبارة عن رسالة، وهذه الرسالة يتبادلها المرسل والمرسل إليه، فيساهمان في التواصل المعرفي والجمالي، وهذه الرسالة مسننة بشفرة لغوية، يفككها المستقبل، ويؤولها بلغته الواصفة، وهذه الرسالة ذات الوظيفة الشاعرية أو الجمالية ترسل عبر قناة، وظيفتها الحفاظ على الاتصال. وفي هذا الصدد، يمكن الاستفادة من وظائف اللغة كما أرساها رومان جاكبسون (R.Jackobson). فللعنوان وظيفة مرجعية تركز على موضوع الرسالة باعتباره مرجعاً وواقعاً أساسياً تعبر عنه الرسالة. وهذه الوظيفة موضوعية لا وجود للذاتية فيها نظراً لوجود الملاحظة الواقعية، بالإضافة إلى النقل الصحيح، والانعكاس المباشر. وهناك الوظيفة الانفعالية التعبيرية التي تحدد العلاقات الموجودة بين المرسل والرسالة. وتحمل هذه الوظيفة في طياتها انفعالات ذاتية، وتتضمن قيماً ومواقف عاطفية ومشاعر وإحساسات، يسقطها المتكلم على موضوع الرسالة المرجعي. وهناك أيضاً الوظيفة التأثيرية التي تقوم على تحديد العلاقات الموجودة بين المرسل والمتلقي، حيث يتم تحريض المتلقي، وإثارة انتباهه، وإيقاظه عبر الترغيب والترهيب، وهذه الوظيفة ذاتية. وهناك الوظيفة الجمالية أو الشعرية التي تحدد العلاقات الموجودة بين الرسالة وذاتها، وتحقق هذه الوظيفة أثناء إسقاط المحور الاختياري على المحور التركيبي، وكذلك عندما يتحقق الانتهاك والانزياح المقصود. وتتسم هذه الوظيفة بالبعد الفني والجمالي الاتصالية للقناة العنوانية، إذ تهدف هذه الوظيفة إلى تأكيد التواصل،

^{٧١} - أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية، ص: ٥٥-٥٦.

^{٧٢} - انظر: عبد الهادي بن ظافر الهشري: إستراتيجية الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة

٢٠٠٤م، ص: ١٤.

واستمرارية الإبلاغ، وتثبيته أو إيقافه، والحفاظ على نبرة الحديث والكلام المتبادل بين الطرفين. علاوة على الوظيفة الوصفية المتعلقة باللغة، وتهدف هذه الوظيفة إلى تفكيك الشفرة اللغوية بعد تسنيها من قبل المرسل. والهدف من السنن هو وصف الرسالة لغويا وتأويلها، مع الاستعانة بالمعجم أو القواعد اللغوية والنحوية المشتركة بين المتكلم والمرسل إليه. ونضيف الوظيفة البصرية أو الأيقونية كما عند ترنس هوكس^{٧٣} التي تهدف إلى تفسير دلالة الأشكال البصرية والألوان والخطوط الأيقونية، بغية البحث عن المماثلة أو المشابهة بين العلامات البصرية ومرجعها الإحالي. ومن باب التنبيه، فنحن، هنا، نحتكم إلى القيمة المهيمنة (La valeur dominante)، كما حددها رومان جاكبسون، لأن العنوان في نص ما قد تغلب عليه وظيفة معينة دون أخرى، فكل الوظائف التي حددناها سالفًا متمازجة، إذ قد نعاينها مختلطة بنسب متفاوتة في رسالة واحدة، حيث تكون الوظيفة الواحدة منها غالبية على الوظائف الأخرى حسب نمط الاتصال.

المبحث الثاني: النص الأدبي تخاطب وتبادل

من المعروف أن النظرية التخاطبية جاءت تطويراً للنظرية التواصلية الإبلابية التي عجزت عن تفسير مجموعة من القضايا اللغوية بشكل جيد؛ لأنها كانت تتعامل مع التخاطب بمعزل عن سياقها الفعلي والإنجازي. ويعني هذا أن "الدراسات التخاطبية تعد امتداداً، واستكمالاً لجهود المدرسة الوظيفية، وتأتي هذه الدراسات نتيجة طبيعة لشعور المهتمين بها بإخفاق النموذج التقليدي للتخاطب في تقديم تفسير ناجح لعملية التخاطب. ويمكن تلخيص أوجه الإخفاق فيه في كونه يتعامل مع التخاطب في عزلة عن السياقات الفعلية التي تستخدم فيها اللغة، ويصنع عملية التخاطب بطابع مثالي تتجاهل فيه قضايا اللبس، والخروج عن المواضع اللغوية، وقصر وظائف اللغة على عملية الإبلاغ، وإهمال الأصول التخاطبية المفسرة لمقاصد المتكلمين".^{٧٤}

^{٧٣} - ترنس هوكس: (مدخل إلى السيميائية)، مجلة بيت الحكمة، المغرب، العدد ٥٥، السنة الثانية، سنة ١٩٨٧م، ص: ١٢٠.

^{٧٤} - محمد محمد يونس علي: مدخل إلى اللسانيات، ص: ٩٨.

وتذهب النظرية التخاطبية إلى أن النص الأدبي تخاطب وتداول، يجمع بين أطراف ثلاثة هي: المرسل المتكلم الذي قد يكون كاتباً أو مؤلفاً أو سارداً أو شخيسة؛ والمرسل إليه الذي قد يكون شخصاً مخاطباً، كأن يكون قارئاً أو متلقياً أو شخصية مقابلة للشخصية المتكلمة. وهناك العنصر الثالث الذي يتمثل في الخطاب التداولي أو الرسالة المرسله. وبهذا، تكون هذه النظرية قد مهدت لميلاد القارئ أو المتلقي أو المستقبل. وتكون، من جهة أخرى، قد أعطت نقطة انطلاق للنظريات التي تعنى بالقارئ المستقبل، كجمالية التلقي ليوس وآيزر، وغيرها من النظريات.

وهكذا، فالنظرية التخاطبية تستوجب وجود ثلاثة أطراف: المرسل (الباث-المتكلم- المتلفظ -المرسل - المتحدث-المبدع)، والرسالة(النص-الأدب-الخطاب - التلفظ...)، والمتلقي(القارئ-المرسل إليه-المستقبل- المتلفظ إليه). ومن ثم، فالباث أو المرسل هو الذي يسنن رسالة ما، سواء أكانت ذهنية أم وجدانية، ليرسلها إلى المتلقي ليفككها في ضوء سنن مشترك أو لغة يعرفها كل من المرسل والمرسل إليه. وفي هذا النطاق، يقول الباحث التونسي حسين الواد: "لقد اعتنت نظرية التخاطب، على وجه الخصوص، بمرور البلاغ من الباث إلى المستقبل عبر قنوات الاتصال، ورأت أن الباث يسجل بلاغه في الكلام حسب قواعد في التسجيل تواضع عليها الناس، وأن المستقبل يعتمد إلى فك رموز الكلام ليحصل على البلاغ منها. إلا أن إيصال البلاغ، في الغالب، مغامرة لا تتم دائماً بسلام. فمهما بذل الباث من جهد في تفادي عناصر التضليل والتحريف وسوء الفهم، فإن بلاغه لا بد من أن يتأثر بها. ولقد كان لهذه النظرية أثر بارز في درس الآثار الأدبية، إذ عمدت طائفة من الباحثين إلى جعل المؤلف باثاً والقارئ متقبلاً والأثر يحمل بلاغاً. إلا أنهم رأوا التخاطب في الأدب يختلف كثيراً عن التخاطب العادي، فمتمهى أمل الباث في التخاطب العادي أن يصل بلاغه سالماً من العثرات إلى المستقبل. والذي يساعده على ذلك ارتباط البلاغ عادة بالمرجع أو السياق يحضر القارئ أثناء القراءة، فيتجنب به الوقوع في الخطأ. إن الخطاب العادي يقوم في أساسه على الوظيفة المرجعية. أما التخاطب الجمالي في الآثار الأدبية فلا وظيفة مرجعية له. وبالتالي، فإن العثرات فيه كثيرة والعقبات كأداء. ومن هنا، حلت فيه الوظيفة الأدبية محل الوظيفة المرجعية في التخاطب العادي. لذلك، كان الغموض في الأثر الأدبي، وكان التفاف الكلام فيه على نفسه أشد ما يكون."^{٧٥}

^{٧٥} - حسين الواد: في مناهج الدراسات الأدبية، منشورات الجامعة، المغرب، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٥م، ص: ٧٤-٧٥.

وإذا كانت الملفوظات التخاطبية العادية لا تثير مشاكل على مستوى التداول والتواصل والتخاطب، فإن النص الأدبي باعتباره ظاهرة تخاطبية بين المتكلم والمخاطب يثير عدة صعوبات بسبب الغموض، والانزياح، والتضمن، والتلميح، والتميز، والأسطرة. لذا، فعلى المتلقي أن يبذل مجهوداً لفك الخطاب الأدبي عن طريق عملية التأويل، وفك الرموز. وفي هذا النطاق، يقول حسين الواد مرة أخرى: "والمهم في نظرية التخاطب أنها أسلمت الآخذين بها إلى الإقرار بالغموض في الآثار الأدبية ميزة من طبيعتها. ولأن التخاطب في الأدب غامض، ولأن الغموض ظاهرة ملازمة له، توقع الباحث (أي الأديب) من القارئ أن يقوم بالتأويل أثناء القراءة، وانتظر منه أن يثري البلاغ الأدبي بإضافات شخصية من عنده يسلطها عليه. ولأن التخاطب الأدبي غامض في أساسه، عمد القارئ، كلما واجه نصاً أدبياً، إلى امتحانه، فاختبر قدراته على تحمل المعاني الإضافية بموجب ماركب فيه من مواطن غامضة تتحمل التأويل. ومن هنا، كان الأثر الأدبي، في نظرية التخاطب، أثراً مفتوحاً يستدعي التأويلات العديدة، ويتقبلها، فيزداد بها ثراءً على ثرائه." ٧٦

هذا، وينبني التخاطب بين أطراف التكلم على مجموعة من مبادئ المحادثة والتخاطب، وقد جمعها فيلسوف اللغة الأمريكي بول كرايس هربرت (Paul Grice Herber) في قاعدة التعاون الذي يقتضي أن المتكلمين متعاونون في تسهيل عملية التكلم والتخاطب. وتتفرع قاعدة التعاون إلى مجموعة من المبادئ منها:

- ١ - مبدأ الكم: تكلم على قدر الحاجة فقط، ولا تتجاوز بإفادتك القدر المطلوب. ويعني هذا الابتعاد عن الاستقصاء المفصل، وتفادي الإطناب والاستطراد في الكلام أو التخاطب.
- ٢ - مبدأ الكيف: لا تقل ما تعتقد كذبه، ولا تقل ما يعوزك فيه دليل بين. ويسمى هذا المبدأ أيضاً بمبدأ الصدق.
- ٣ - مبدأ الأسلوب: تجنب إبهام التعبير، وتجنب اللبس، وأوجز كلامك، بحيث تتجنب الإطناب الزائد، وليكن كلامك أيضاً كلاماً مرتباً.

٧٦ - حسين الواد: نفسه، ص: ٧٤- ٧٥.

٤ - مبدأ المناسبة: ليكن كلامك مناسباً لسياق الحال، فالكلام هو مراعاة مقتضى الحال، أو مناسبة المقال للمقام.^{٧٧}

يبد أن نظرية كرايس خضعت لنوع من التطوير والتعديل والنقصان والإضافة، " بفضل جهود باحثين في مجال علم التخاطب، ومن بينهم هارنيس (Harnish) الذي أضاف بعض التعديلات منها: الجمع بين مبدأي الكم والكيف، وصادوك (Sadock) الذي أشار إلى إمكان تقليص بعض مبادئ كرايس، وأبرز بعض الثغرات في معيار الإبطال الذي صممه كرايس لاكتشاف المفاهيم الخطابية المولدة نتيجة انتهاك أحد مبادئ المحادثة المشار إليها سابقاً. وتمكن صادوك من إضافة معايير أخرى لاختبار تلك المفاهيم، غير أن أقوى التحديات جاءت من ويلسون (Wilson) وسبيرير (Sperber) اللذين شككا في مبادئ كرايس، واستثنيا من ذلك مبدأ المناسبة الذي جعلاً منه أساساً لنظرية سميها بنظرية المناسبة.^{٧٨}

ويعني هذا كله أن الناقد التداولي يمكن أن يتعامل مع النص الأدبي أو الخطاب الإبداعي باعتباره بنية تخاطبية وتبادلية بين طرفين ضمن سياق عام، أو سياق موقعي، أو سياق نصي، مع تحديد نوع التخاطب والتبادل التداولي.

وهكذا، يتبين لنا أن النص الأدبي يمكن مقارنته من وجهة تواصلية وتبادلية على حد سواء، على أساس أن الأدب ذو وظيفة تواصلية من جهة، ويؤدي وظيفة تبادلية تبليغية من جهة أخرى.

⁷⁷ - See H. Grice. (Logic and conversation), In Steven David (ed), **Pragmatics: A reader**, New York, Oxford University press, 1991, pp: 305-315.

^{٧٨} - محمد محمد يونس علي: نفسه، ص: ١٠٠.

الخاتمة

وخلاصة القول، يتبين لنا، مما سبق ذكره، أن التواصل عملية تبادلية وتفاعلية وتبالية بين طرفين فأكثر. ومن ثم، يقوم التواصل على عناصر أساسية هي: المرسل، والمرسل إليه، والرسالة، والمرجع، والقناة، واللغة. ولا يمكن الحديث عن التواصل إلا بوجود مجموعة من الشروط، مثل: طرفي التواصل، والإرسالية، والتبادل، والتأثير، والإقناع، والسياق الزماني والمكاني، وعنصر المقصدية.

ومن ثم، فهناك أنواع عدة من التواصل، مثل: التواصل الإعلامي، والتواصل اللساني، والتواصل التربوي، والتواصل النفسي، والتواصل الاجتماعي، والتواصل الآلي، والتواصل الرقمي، والتواصل الأدبي، والتواصل الفني، والتواصل الفلسفي، والتواصل السيميائي... بل ثمة نماذج تواصلية معروفة، كالنموذج الإعلامي، والنموذج السلوكي، والنموذج اللساني، والنموذج الرياضي، والنموذج الاجتماعي...

وتعد المدرسة الوظيفية، سواء أكانت بنيوية أم توليدية أم تداولية، من أهم المدارس التي اهتمت اهتماما كبيرا بالبعد التواصل والتبادلي، كما يبدو ذلك جليا عند: دوسوسير، وأندري مارتينييه، وتروبسكوي، ورومان جاكسون، وفان ديك، وهاليداي...

وعليه، يمكن الحديث عن نوعين من التواصل: التواصل اللفظي والتواصل غير اللفظي. فالتواصل الأول ذو طبيعة تلفظية لسانية، يقوم على تشغيل اللغة بمختلف ملفوظاتها الصوتية والتعبيرية والصرفية والتركيبية والدلالية. والثاني ذو طبيعة سيميائية لكونه يستند إلى الحركات، والإشارات، وسيمياء المكان، ولغة الوجه والجسد والأطراف...

ومن هنا، يستخدم المدرس، داخل الفصل الدراسي، التواصل التربوي بنوعيه: اللفظي وغير اللفظي. وإن كان هذا المدرس يكثر مما هو لغوي على حساب ما هو بصري وسيميائي وغير لفظي.

ثبت المصادر والمراجع

المصادر:

١- ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الجزء الأول، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الحادية عشرة.

٢- ابن منظور: لسان العرب، الجزء الخامس، دار صبح بيروت، لبنان، وأديسوفت، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٦م.

المراجع باللغة العربية:

٣- ابن رشد المعتمد ومحمد خريس: مدارس علم اللغات، المكتبة الثقافية، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م.

٤- أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ٢٠١٠م.

٥- بدير جيرو: السيمياء، ترجمة: أنطون أبي زيد، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٦- توم بوتومور: مدرسة فرانكفورت، ترجمة: سعد هجرس، دار أوياء، دار الكتب الوطنية، ليبيا، الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٤م.

٧- جميلة العسال: دروس في التربية وعلم النفس، المركز التربوي الجهوي بفاس، مطبوع جامعي، السنة الدراسية: ١٩٨٠-١٩٨١م.

٨- جون أوستين: نظرية أفعال الكلام العام، ترجمة: عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٦م.

٩- حسين الواد: في مناهج الدراسات الأدبية، منشورات الجامعة، المغرب، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٥م.

١٠- حميد حمداني: أسلوبية الرواية، منشورات دراسات سال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م.

١١- حنون مبارك: دروس في السيميائيات، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧م.

١٢- ديفيد كارتر: النظرية الأدبية، ترجمة: د. باسل المسالمه، دار التكوين، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى سنة ٢٠١٠م.

١٣- رومان جاكبسون: (القيمة المهيمنة)، نظرية المنهج الشكلي، ترجمة: إبراهيم الخطيب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢م.

١٤- عبد الله إبراهيم، وسعيد الغانمي، وعواد علي: معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠م.

١٥- عبد الهادي بن ظافر الهشري: إستراتيجية الخطاب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٤م.

١٦- العربي أسليماني ورشيد الخديمي: قضايا تربوية، منشورات عالم التربية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

١٧- فان ديك: النص والسياق، ترجمة: عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٩م.

١٨- مادي لحسن: الأهداف والتقييم في التربية، شركة بابل للطباعة والنشر، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠م.

١٩- محمد مفتاح: في سيمياء الشعر القديم، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م.

٢٠- محمد محمد يونس علي: مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٤م.

المراجع باللغة الأجنبية:

21-André Martinet: Eléments de linguistique générale. Armand Colin. Paris 1970.

22-Bernard Sannanès: Les fondements d'une communication efficace, Dunod, 2002.

23-Charles Cooley:(social organisation), cité in:J.Lohisse: la communication anonyme. ED. Universitaire1969.

24-C. Lévi-Strauss et R. Jakobson: («Les Chats" de Charles Baudelaire), L'Homme, *revue française d'anthropologie*, t. II, n° 1, 1962.

25-Corraze Jacques: les communications non verbales.ED: PUF.1980.

26-Hall.E.T: (Proxemics: the study of man's spatial relations and boundaries), in: Man's image in medicine and anthropology. New-York International University Press 1963.

27-Hall Edward: la dimension cachée.Ed Seuil.Coll. Point, n° 89.1971.

28-H.Grice. (Logic and conversation), In Steven David (ed), Pragmatics: A reader, New York, Oxford University press, 1991.

- 29- Françoise Raynal and Alain Rieunier: **Pédagogie:**
Dictionnaire des concepts clés, 1977, ESF éditeur Paris.
- 30-Gilbert de Landsheere, André Del chambre: **les**
comportements non verbaux de l'enseignant. 2. Fernand
Nathan, ed. Labor. Bruxelles, 1974.
- 31- Gilles Amado/ André Guillet: **la dynamique des**
communications des groupes.ED. Armand Colin.
- 32-Jean Cohen: **Le haut Langage**, Paris, Flammarion, 1979.
- 33-Julia Kristeva: **Recherches pour une sémanalyse**.ED,
n°:96.Paris 1969.
- 34-R.Jakobson: **Essais de linguistique générale**, Paris, Minuit,
1963.
- 35-R.Jakobson: **Huit questions de Poétique**, Paris, Point, 1977.
- 36- Suzette Ghodsi-Jose: **Les 3 dimensions éducatives**, ed.
Labor.

المقالات:

٣٧- ترنس هوكس: (مدخل إلى السيمياء)، مجلة بيت الحكمة، المغرب، العدد ٥٥، السنة الثانية، سنة ١٩٨٧م.

٣٨- طلعت منصور: (سيكولوجية الاتصال)، عالم الفكر، الكويت، المجلد ١١، السنة ١٩٨٠م.

٣٩- محمد نادر سراج: (التواصل غير الكلامي بين الخطاب العربي القديم والنظر الراهن)، الفكر العربي المعاصر، لبنان، العددان: ٨٠/٨١، السنة ١٩٩٠م.

الفهرس

١	الإهداء
٣	المقدمة
٤	الفصل الأول: مفهوم التواصل وأنواعه ونماذجه
٢٤	الفصل الثاني: التواصل اللفظي وغير اللفظي
٣٤	الفصل الثالث: رومان جاكبسون ولسانيات التواصل
٤٨	الفصل الرابع: التواصل التربوي اللفظي وغير اللفظي
٦٤	الفصل الخامس: النص الأدبي في ضوء المقاربة التواصلية
٧٠	الخاتمة
٧١	المصادر والمراجع
٧٦	الفهرس

سيرة الباحث:



- جميل حمداوي من مواليد مدينة الناظور المغرب.
- حاصل على دكتوراه الدولة سنة ٢٠٠١م.
- أستاذ التعليم العالي.
- أديب ومبدع وناقد وباحث، يشتغل ضمن رؤية أكاديمية موسوعية.
- حصل على جائزة مؤسسة المثقف العربي (سيدني/أستراليا) لعام ٢٠١١م في النقد والدراسات الأدبية.
- حاصل على جائزة ناجي النعمان الأدبية سنة ٢٠١٤م.
- رئيس الرابطة العربية للقصة القصيرة جدا.
- رئيس المهرجان العربي للقصة القصيرة جدا.
- رئيس الهيئة العربية لنقاد القصة القصيرة جدا.
- رئيس الهيئة العربية لنقاد الكتابة الشذرية ومبدعيها.
- رئيس جمعية الجسور للبحث في الثقافة والفنون.
- رئيس مختبر المسرح الأمازيغي.
- عضو الجمعية العربية لنقاد المسرح.

-عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية.

- عضو اتحاد كتاب العرب.

-عضو اتحاد كتاب الإنترنت العرب.

-عضو اتحاد كتاب المغرب.

- من منظري فن القصة القصيرة جدا وفن الكتابة الشذرية على الصعيد العربي.

- خبير في البيداغوجيا والسيمولوجيا والثقافة الأمازيغية.

- ترجمت مقالاته إلى اللغة الفرنسية واللغة الكردية.

- شارك في مهرجانات عربية عدة في كل من: الجزائر، وتونس، ومصر، والأردن، ولبنان، والسعودية، والبحرين، والعراق، والإمارات العربية المتحدة، وسلطنة عمان...

- مستشار في مجموعة من الصحف والمجلات والجرائد والدوريات الوطنية والعربية.

- نشر العديد من المقالات الورقية المحكمة وغير المحكمة التي تربو على الألف. علاوة على عدد كبير من المقالات الرقمية، وأكثر من (١١٤) كتاب في مجالات متنوعة. وبهذا، يكون أكثر إنتاجا في المغرب العربي من حيث الكتب والمقالات.

- ومن أهم كتبه: الشذرات بين النظرية والتطبيق، والقصة القصيرة جدا بين التنظير والتطبيق، والرواية التاريخية، تصورات تربوية جديدة، والإسلام بين الحداثة وما بعد الحداثة، ومجزئات التكوين، ومن سيميوطيقا الذات إلى سيميوطيقا التوتر، والتربية الفنية، ومدخل إلى الأدب السعودي، والإحصاء التربوي، ونظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، ومقومات القصة القصيرة جدا عند جمال الدين الخضيري، وأنواع الممثل في التيارات المسرحية الغربية والعربية، وفي نظرية الرواية: مقاربات جديدة، وأنطولوجيا القصة القصيرة جدا بالمغرب، والقصيدة الكونكريتية، ومن أجل تقنية جديدة لنقد القصة القصيرة جدا، والسيمولوجيا بين النظرية والتطبيق، والإخراج المسرحي، ومدخل إلى السينوغرافيا المسرحية، والمسرح

الأمازيغي، ومسرح الشباب بالمغرب، والمدخل إلى الإخراج المسرحي، ومسرح الطفل بين التأليف والإخراج، ومسرح الأطفال بالمغرب، ونصوص مسرحية، ومدخل إلى السينما المغربية، ومناهج النقد العربي، والجديد في التربية والتعليم، وببليوغرافيا أدب الأطفال بالمغرب، ومدخل إلى الشعر الإسلامي، والمدارس العتيقة بالمغرب، وأدب الأطفال بالمغرب، والقصة القصيرة جدا بالمغرب، والقصة القصيرة جدا عند السعودي علي حسن البطران، وأعلام الثقافة الأمازيغية...

- عنوان الباحث: جميل حمداوي، صندوق البريد ١٧٩٩، الناظور ٦٢٠٠٠، المغرب.

- الهاتف النقال: ٠٦٧٢٣٥٤٣٣٨.

- الهاتف المنزلي: ٠٥٣٦٣٣٣٤٨٨.

- الإيميل: Hamdaouidocteur@gmail.com

Jamilhamdaoui@yahoo.fr

كلمات الغلاف الخارجي:

يذهب كثير من الدارسين إلى أن الدوال تدل، وتتواصل بطريقة مباشرة وغير مباشرة، ومنها: اللغة، والعلامات، والخطابات، والأنساق، والإنسان، وسائر الكائنات الموجودة في الطبيعة. ويعني هذا أن كل شيء في عالمنا يحمل دلالة ووظيفة. وهذه الوظيفة قد تكون ذات مقصدية أو بدون مقصدية، ذات ميزة فردية أو جماعية، طبيعتها مادية أو معنوية. كما أن هذه الدوال التواصلية قد تكون لفظية أو غير لفظية، تعبر عن وعي أو عن غير وعي. واليوم، أصبح التواصل عبارة عن تقنية إجرائية وأساسية في فهم التفاعلات البشرية، وتفسير النصوص والخبرات الإعلامية، والتحكم في كل طرائق الإرسال والتبادل.

وتعد اللغة من أهم آليات التواصل، ومن أهم تقنيات التبليغ ونقل الخبرات والمعارف والتعلمات من الأنا إلى الغير، أو من المرسل إلى المخاطب. وهذه اللغة على مستوى التخاطب والتواصل والتمظهر ذات مستويين سلوكيين: لفظي وغير لفظي.

المؤلف: جميل حمداوي

الكتاب: التواصل اللساني والسميائي والتربوي

الطبعة الأولى: ٢٠١٥م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف